الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوي قسنطينة

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم التاريخ والآثار

رقم التسجيل:

الرقم التسلسلي:

الأوضاع الاجتماعية بالمغرب في عهد الخلافة الفاطمية (296هـ-362هـ/908م-972م)

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي

من إعداد الطالب :

رفيق بوراس

تحت إشراف:

الدكتور: محمد الصالح مرمول

أعضاء لجنة المناقشة: **تاريخ المناقشة:**

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
بوبة مجاني	أ.التعليم العالي	جامعة منتوري –قسنطينة -	رئيسا
محمد الصالح مرمول	أ.مكلف بالدروس	جامعة منتوري –قسنطينة -	مشرفا و مقررا
ابراهيم بحاز	أ.التعليم العالي	جامعة منتوري –قسنطينة -	عضوا منافشا
علاوة عمارة	أ.محاضر	جامعة الأمير عبد القادر –قسنطينة -	عضوا منافشا

السنة الجامعية: 1427 – 1428 ه ـ الموافق لـ: 2007- 2008.

المصطلحات الواردة في البحث

د.م.ج : ديوان المطبوعات الجامعية

مج : مجلد

ج : الجزء

ط : طبعة

د.ت : دون تاريخ طبعة

ع : عدد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

المقدمة

على الرغم من تقدم الدراسات التاريخية التي تبحث في تاريخ الخلافة الفاطمية ، وشمولية لعديد من الموضوعات السياسية والاجتماعية والدينية إلا أن في معظمها تناولت تاريخها بمصر ، وتظل دراسة الأوضاع الاجتماعية لهذه الدولة في مرحلتها المغربية (296 – 362 ه / 908 – 972) ، لم تنل قسطا وافرا من البحث والتنقيب ، وما زال ينتا ا بعض القصور وان وجد من الباحثين المعاصرين من تناول بالدراسة بعض جوانب الموضوع (1)، والتي تعد محاولات جادة لدراسات اشمل في هذا ا ال .

ونظرا لان فترة الوجود الفاطمي ببلاد المغرب الإسلامي تركت أثارا واضحة المعالم في حياة ا تمع شملت كل ا الات ، سياسية ، اقتصادية ، وثقافية ، وحتى اجتماعية ، فتقهقرت بعض القوى الاجتماعية والتي طالما تشبثت بالسلطة وصعدت أخرى كانت اقل منها شانا ، فإلى أي مدى ساهم الفاطميون في أحداث هذا التحول الاجتماعي ، وماذا ترتب عن ذلك من نتائج؟ ومن هنا فان رصد كل هذه التغيرات الاجتماعية في ظل الحكم الفاطمي يكتسي أهمية بالغة .

---

(1) نذكر على سبيل المثال : البحث القيم الذى تقدم به الأستاذ لقبال موسى لنيل درجة (دكتوراه دولة) في التاريخ الإسلامي والموسوم بـ: دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية وبحث (دكتوراه دولة) في النظم الإسلامية للأستاذة بوبة مجاني الموسوم بـ: النظم الإدارية في بلاد المغرب – خلال العصر الفاطمي -- تحت إشراف الدكتور ، محمود إسماعيل عبد الرزاق ، بقسنطينية ، الجزائر ، 1995 م .

والجدير بالذكر – أن هناك عدة مشكلات صادفتنا أثناء بحث هذا الموضوع، لعل في مقدمتها مشكلة المادة التاريخية ، كو ا تم أكثر بالجانب السياسي ، فضلا عن ذلك نجد أن هناك نظرة عدائية اتسمت ا بعض من المصادر التاريخية تجاه الفاطميين ، بحكم مذهبهم الشيعي الاسماعيلي ، وقد ابتعد فيها أصحا ا عن الموضوعية والحياد في تناولهم لتاريخ الفاطميين ، لذلك وجب علينا التعامل بحذر مع الروايات التاريخية المختلفة ، وتناولها نقديا .

ولمعالجة تلك المشكلات اعتمدنا على الكثير من المناهج والتي تعلن على دراسة الموضوع وحل مشكلاته – لعل أهمها منهج (الوصف السردي) الذي ينصب على وصف الوقائع والأحداث التاريخية كما هي قائمة ، وقد اعتمدنا عليه في تغطيت الفترات الشاغرة في تاريخ ، الخلافة الفاطمية ، ورصد الأحداث التي ارتبطت بالأوضاع الاجتماعية بصفة خاصة ، كما اعتمدنا على (منهج التحليل) دف تحليل الظواهر والأحداث المختلفة ، دف الوصول إلى أحكام معللة ومنطقية .

وعملا بالشروط المنهجية المعروفة ، فقد قسمنا البحث إلى تمهيد وثلاثة فصول تنديلة خاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة .

أما التمهيد فقدمنا فيه عرضا وجيزا حول إنتشار الدعوة الشيعية الإسماعيلية في بلاد المغرب الإسلامي ، منذ إن وضع أبو عبد الله الشيعي قواعدها ، وهي المرحلة التي تميزت بتثبيت مؤسسات الدولة ، ومهدت لوضع سياسة خاصة في البلاد .

والفصل الأول بعنوان السلطة الفاطمية وا تمع وتضمن علاقة الفاطميين بمختلف القبائل المغربية وخاصة كتامة وزناتة وصنهاجة ، وكيف تعاملوا مع طموحات كل قبيلة بما يخدم توجها م السياسية ، ثم عرجنا إلى إبراز دور علماء أهل السنة في ا تمع في مجال مقاومة السلطة ، كما سلطنا الضوء على دور العبيد كطبقة اجتماعية فرضت نفسها داخل السلطة وا تمع على حد سواء .

وخصصنا الفصل الثاني لطبقات ا تمع على عهد الفاطميين مع دراسة وتحليل الخصائص كل طبقة ، وعلاقتها بالسلطة قربا أو بعدا ، وربط كل طبقة بالتي قبلها للوقوف عند أوجه التباين الاجتماعي .

وقد جاء الفصل الثاني تمهيدا للفصل الثالث ، والذي افر دناه للحديث عن نتائج هذا التباين الاجتماعي ، الأمر الذي انعكس على الحياة العامة للسكان في كل ا الات لا سيما في المطعم والملبس ، وفي الاحتفالات ، كما خصصنا مجالا واسعا تناولنا فيه أهم العادات والتقاليد السائدة في بلاد المغرب الإسلامي بوجه عام ، مع رصد بعض الاضطرابات في ا تمع ، وانعكاساته على حياة السكان .

عرض لأهم المصادر والمراجع وتحليلها:

لقد اعتمدنا في بحثنا على عدد من المصادر والمراجع المتنوعة في موضوعنا ا، وتتمثل في كتب التاريخ والجغرافية، والتراجم والطبقات والسير والرحلات، وغيرها، ولعل أبرزها:

1- كتب التاريخ:

ويلاحظ أن من بين المصادر الأصلية في هذا البحث، التي تمثل مكان الصدارة أعمال أنبغ فقهاء الشيعة الإسماعيلية وأعلام علمائهم أبي حنيفة النعمان بن محمد بن حيون التميمي (ت363هـ/974م)، فقد عاش لفترة طويلة، وهو على مذهب أهل السنة، ومن ثم كانت له علاقات برجال أهل السنة، جاهد للإبقاء عليها بعد انضمامه إلى الحركة الإسماعيلية، وفي خدمة الخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب الإسلامي، وهو معاصر لما سجله من أحداث عن هؤلاء وأولئك، وبحكم ارتباطاته المختلفة، فقد كان مطلعا على جميع الآراء، وعلى سير الأوضاع الاجتماعية، والوثائق أيضا، وصنفت أعماله الأدبية والتاريخية، والتي اختصت بالعقائد تلقائية، أثناء ملازمة أشهر خلفاء الدور المغربي، وهو المعز لدين الله الفاطمي، أما ما يهمنا من هذه المصادر:

أ- "رسالة افتتاح الدعوة"(2)، والتي تعد قصة متكاملة عن الحركة الإسماعيليةلا سيما في دورها المغربي، والتي تطورت إلى نظام خلافة، وفي هذا المؤلف، إشارات عن تنظيمات الداعي أبي

(2) تحقيق: فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، د.ت.

عبد الله الشيعي، وعن أحداث المنطقة، وردود الفعل المختلفة من انتشار الحركة الإسماعيلية، خلال فترة الدراسة، كما يتضمن تفاصيل هامة لأحداث اجتماعية لا غنى للدارس في التاريخ الاجتماعي عنها؛ كالتعرف عن مكانة كتامة الاجتماعية وعن دورها في قيام الخلافة، وأيضا بعض العادات السائدة في ا تمع، كصفة الكرم والشجاعة وتوقير العلم والعلماء..

والملاحظ أن كلا من ابن الأثير، وابن خلدون والمقريزي، والنويري اعتمدوا على رواية النعمان الخاصة بأحداث كتامة وإفريقية، إذ يبدو تأثير القاضي النعمان جليا في أكثر من موطن(3)، ويرقى حتى إلى استخدام نفس العبارات والصيغ اللغوية!.

ب- "ا الس والمسايرات"(4)، لا غرو أن هذا الكتاب يعد وثيقة هامة لمعرفة الدور المغربي للخلافة الفاطمية، إذ يعكس سياسة خلفاء هذا الدور تجاه الحركات المناهضة لحكمهم، سواء كانوا من كتامة أو زناتة، أو مكناسة، وعن علاقا م المختلفة، وقد استفدنا من الكتاب في أغلب مراحل البحث، لاسيما في فصليه الأول والثاني، ولا يخلو من موضوعات اجتماعية تم بموضوع الدراسة، كالعادات والتقاليد، ويمكننا من خلاله من التعرف أن الضرائب كانت السبب الحقيقي في قيام ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني، على خلاف ما يروج له في بعض المصادر السنية، التي تجمع في معظمها على أن السبب في ثورته مذهبي أولا وأخيرا.

ج- ويركز كتاب "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، لابن عذارى(5) المتوفي سنة 712هـ/1312م، وبخاصة جزئه الأول، وبوضوح في مسألة "الضرائب المتنوعة" التي فرضها الفاطميون على سكان المغرب الإسلامي، وكيف آل بسببها وضعهم الاجتماعي والاقتصادي؛ وإذا كانت رواية "ابن عذاري" تخالف ما جاء عند "النعمان" و"ابن خلدون"، و"ابن الأثير"، فهذا لا ينقص من قيمتها الإخبارية، كو ا تعرضت لأحداث كثيرة تختص بالعصر الفاطمي- محور دراستنا- لم يشر إليها هؤلاء، وخاصة حول علاقات الخلفاء مع قبيلة كتامة، وجماهير أهل السنة،

---

(3) قارن مثلا: بين ما جاء في "الاتعاظ" للمقريزي، ج1، ص93، ونص "الافتتاح" للقاضي النعمان، ص335.

(4) تحقيق: الحبيب الفقي، وإبراهيم شبوح، ومحمد اليعلاوي، الجامعة التونسية، تونس، 1978.

(5) أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي، تحقيق: ج.س.كولان، وليفي برفشال، دار الثقافة، بيروت، 1980.

كما انفردت روايته- دون سواها- بتأريخ مفصل حول الأوبئة التي حلت ببلاد المغرب الإسلامي، مثل وباء سنة 303هـ/915م(6)، وسنة 307هـ/919م(7).

د- أما كتاب "عيون الأخبار وفنون الآثار"(8) للداعي إدريس عماد الدين القرشي المتوفى سنة 827هـ/1423م، فرغم اهتمامه بالتاريخ السياسي والعسكري لخلفاء الخلافة الفاطمية في طورها المغربي، إلا أن ميزة الكتاب تكمن في أنه:

* تناول أهم الهجرات التي عرفها سكان بلاد المغرب الإسلامي، طيلة حكم الفاطميين والثورات التي قامت ضدهم.

* كما تعرض إلى بعض صفات كتامة من كرم(9) وشجاعة ومروءة، وغيرها من الصفات- والتي لا ريب- اشترك فيها عامة أهل المغرب الإسلامي.

* تناول أيضا وظائف العبيد (صقالية، سودان، روم)، سواء في ا ال الإداري أو العسكري أو الاجتماعي، حتى أن هؤلاء أصبحوا قوى تنافس بعض القوى في الزعامة كتامية وصنهاجية، كان لها وزن في السلطة.

هـ- ولا شك أن مؤلفات "المقريزي" من أشهر المصادر التي أفادت بحثي، واعتمدت عليها في مختلف مراحله، لاحتوائها على مادة غزيرة، لأن المقريزي نقل رواياته عن كتب كثيرة فقدت، ولم تصل إلينا، والتي التزم المقريزي فيها بالموضوعية والحياد في تناوله لتاريخ الخلافة الفاطمية، ولو أنه اعتمد في أغلب رواياته على القاضي النعمان، إلا أن كتابه:

"اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء"(10)، فقد امتاز بدقة المعلومات ووضوحها وبخاصة عند تعرضه للدور الذي لعبته كتامة، والذي ابتدأت حلقاته الأولى ببلاد كتامة، وانتهت إلى مصر وبلاد الشام، دون إهمال تفاصيل هامة ذات صلة وثيقة بالأوضاع الاجتماعية مثل

---

(6) نفس المصدر، ص173.

(7) نفسه، ص181.

(8) تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1985.

(9) المرجع نفسه، ص91.

(10) تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، ط2، 1996.

الإشارة إلى الآثار التخريبية التي أحدثتها ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني ضد الحكم الفاطمي، وما نجم عنها من نتائج، كان أبرزها هجرة السكان.

و- وتتضح أهمية كتاب "أخبار ملوك بني عبيد وسير م"(11)، لابن حماد المتوفي سنة 628ه/1231م، في أنه تتبع مكانة القبائل المغربية اجتماعيا، التي كانت على ارتباطها بالسلطة منصبا بما تحققه من انتصارات ضد المخالفين، وتركيزه من جهة أخرى على مسألة الأموال التي اغدقها الخلفاء لاستمالتهم، كما أمكننا من خلاله التعرف على بعض مظاهر ثروة الخلفاء، التي أنفقوها في بناء القصور والمتـ هات وما إلى ذلك.

2- كتب الطبقات والتراجم والسير:

ولهذه الكتب أهمية خاصة، لأ ا تكمل النقص الموجود في بعض المصادر التاريخية، وتقدم ترجمة وافية لأشهر الشخصيات العامة والخاصة، وتبرز مدى مشاركة هؤلاء في الحياة السياسية والاجتماعية وغيرها ، لذلك تعد على قدر كبير من الأهمية لا سيما ما تعلق منها بالجوانب الاجتماعية من مختلف النواحي، لاسيما منها الاجتماعية، والتي منها:

أ- "رياض النفوس في علماء القيروان وإفريقية وتونس، وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم"(12)، لأبي بكر عبد الله بن محمد المالكي المتوفي في سنة 474ه/1081م، فهو ذو قيمة تاريخية عظيمة، إذ يزخر بإشارات اجتماعية، تتصل بالمأكل والملبس المأكل والملبس، حيث قدم لنا معلومات جليلة في الفصل الأخير من البحث.

ب- "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"(13)، لابن أبي أصيبعة، وقد استفدنا من هذا الكتاب وبخاصة في إبراز مظاهر الأ ـة التي أحاطت بخلفاء الفاطميين، حيث أ ـم أحاطوا أنفسهم بطائفة من الأطباء، فكانوا ملازمين لهم في القصور أو في تنقلا ـم، وقد كان أغلبهم من اليهود، وهنا تبدو ميزة الفاطميين عن غيرهم في تسامحهم مع أهل الذمة.

(11) تحقيق: جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

(12) تحقيق: بشير البكوش، وأحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، للطباعة والنشر، بيروت، 1981م.

(13) دار الثقافة، بيروت، 1991، ط3.، ص160 .

ج- ويحفل كتاب "معالم الإيمان في معرفة رجال أهل القيروان"(14) للدباغ، المتوفي في سنة 696ه/1297م، بمعلومات غزيرة عن سياسة الفاطميين المذهبية، وعلاقتهم برجال السنة المالكية، وكيف أن هؤلاء كانوا حجرة عثرة ضد انتشار مذهبهم، الأمر الذي جعلهم يتعرضون للقتل أو التعذيب، وقد أبرز "الدباغ"، أسباب انضمام المالكية إلى جانب ثورة أبي يزيد اليفرني، الذي تظاهر أمامهم بإحياء مذهب الإمام مالك، كما لا يخلو الكتاب من إشارات اجتماعية مثل إسهام علماء المالكية في المحافظة على تماسك المجتمع من خلال إحيائهم للأخلاق الحميدة، كإطعام الطعام، وحسن الجوار، وتكافل أفراد المجتمع فيما بينهم...

د- وتعد "سيرة الحاجب جعفر"(15) لليماني، محمد بن محمد، المتوفي في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وثيقة إسماعيلية هامة، للإطلاع على أسرار المذهب، ودور الستر، والظهور، كما لا تخلو من إشارات اجتماعية، مثل التطرق الى زواج الخليفة عبيد الله المهدي بزواج عبيد الله المهدي بابنة عمه- دون ذكر اسمها- وظاهرة اشتغال المرأة السجلماسية بتجارة الرقيق.

ه- "سيرة الأستاذ جوذر"(16)، للعزيزي، الجوذري، المتوفي في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وقد أمكننا من خلالها تحديد مكانة كتامة الاجتماعية ، وأنها كانت من أشد قبائل البربر تعلقا بالدولة، وتأييدا لها، وهذا المعنى تدعم ما ذكر في مصادر تاريخية أخرى ، كما اضطلعنا بدور العبيد، وتقلدهم لأسمى الوظائف سواء في خدمة القصور والدواوين، والجيش، وأيضا البحرية.

و- أما "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"(17)، لابن خلكان، فقد أفادني في تقديم تراجم وافية لأهم الشخصيات السياسية والعلمية والأدبية، والتي أسهمت في أحداث الخلافة الفاطمية و في تطوير الحياةببلاد المغرب الاسلامي مجال الدراسة .

---

(14) المطبعة العربية التونسية، تونس، 1320م.

(15) تحقيق ونشر: ايفانوف، مجلة كلية الآداب، مج، ج1، القاهرة، 1936.

(16) تحقيق: محمد عبد الهادب شعيرة، وكامل حسين، دار الفكر، القاهرة، 1954.

(17) تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1977.

3- كتب الجغرافيا والرحلات:

وقد أمدتنا هذه المصادر بالعديد من التفاصيل التي أغفلها المؤرخون، وترجع أهميتها أيضا إلى أن هؤلاء الرحالة الجغرافيين قاموا بتسجيل كل ما عاينوه ، فقدموا لنا مادة علمية قيمة عن أحوال العديد من المدن والأقاليم التي قاموا بزيار ا وطافوا ا، نذكر منها:

أ- "صورة الأرض"(18)، لابن حوقل النصيبي، المتوفي سنة 367هـ/978م، الذي زار بلاد المغرب الإسلامي في حوالي سنة 330هـ/841م، فهو ذو أهمية بالغة، فبالإضافة إلى وصفه الدقيق للمنطقة وحدودها الجغرافية، فقد أطلعنا بمعلومات تاريخية هامة،اذ انفردت وانفرد في بعض أجزائه بنصوص لم ترد في المصادر الأخرى، مثل كتب التاريخ العام، لاسيما فيما يتعلق ببعض أخلاق و عادات أهل المغرب الإسلامي، كما زودنا بمعلومات اقتصادية هامة عن دخل المغرب الإسلامي في عهد الخلافة الفاطمية.

ب- أما كتاب "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب"(19)، للبكري، المتوفى سنة 487هـ/1094م، فقد أسهب في عرض تواريخ المدن المغربية نقلا عن محمد بن يوسف الوراق المتوفي سنة 363هـ/973م(20)، ورغم أنه لم يزر المنطقة إلا أنه نقل لنا معلومات غاية في الأهمية، عن خصائص المغرب الإسلامي وثرواته الاقتصادية، فضلا عما ذكره عن الأوضاع الاجتماعية لعناصر السكان، والتوزيع الجغرافي لأهل الذمة من النصارى واليهود بالمنطقة.

جـ- واستفدنا أيضا من كتاب "معجم البلدان"(21)، لياقوت الحموي، المتوفي سنة 626هـ/1229م، وبخاصة في تحديد مواطن كتامة، وبلاد المغرب الإسلامي عموما، ورغم أن رواية "ياقوت" اعتمدت في بعض النصوص على ما جاء في كتاب الجغرافيا "للبكري"، غير أن هذا

---

(18) منشورات مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

(19) مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.

(20) عبد الواحد دنون طه، "دراسة في موارد أبي عبيد الله البكري عن تاريخ إفريقية والمغرب"، دراسات أندلسية، العدد 3، 1989، ص276.

(21) تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.

لا ينقص من قيمتها، حيث تعد من المصادر الأساسية لمعرفة أسماء المدن المغربية، وأهم الأنشطة الاقتصادية ا ، لاسيما في مرحلة الدراسة.

د- ولابد من الرجوع إلى كتاب "الرحلة"(22)، للتجاني، المتوفي في أوائل القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، للاستفادة من بعض التفاصيل الجغرافية الدقيقة، التي أهملها الجغرافيون الأوائل، هذا وقد انفرد صاحب الرحلة بسرد معلومات تاريخية هامة، قلما نعثر عليها حتى في أمهات المصادر الإخبارية، مثل، إنشاء الخليفة عبيد الله المهدي لجامع طرابلس الأعظم سنة 299هـ/911م(23).

II) المراجع:

* الدراسات الحديثة:

كما استندت هذه الدراسة إلى مجموعة من المراجع العربية والأجنبية التي لا غنى عنها بالنسبة لموضوعنا نذكر منها: كتاب "السياسية الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي"(24) للدكتور مرمول محمد الصالح، وكتاب: "تاريخ المغرب وحضارته"(25) للدكتور حسين مؤنس، وأيضا: "المغرب الإسلامي"(26) للدكتور الحبيب الجنحاني، مع الإشارة إلى بحثه المعنون بـ "السياسة المالية للدولة الفاطمية بالمغرب"(27)، وايضا كتاب: "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع (9-10م)"(28) للأستاذ جودت عبد الكريم يوسف.

كما استعنت بأبحاث ودراسات حديثة، لها علاقة وثيقة بموضوع الدراسة، التي نذكر منها، كتاب "دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية"(29) للدكتور موسى لقبال، وكتاب "دراسات

---

(22) تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، تونس، 1958.

(23) المصدر نفسه، ص253.

(24) د.م.ج، الجزائر، 1983.

(25) بيروت، ط1، 1992.

(26) الدار التونسية، تونس، د.ت.

(27) مجلة الأصالة، العدد 49، 50، السنة السادسة، رمضان- شوال 1397هـ/سبتمبر- أكتوبر 1977.

(28) د.م.ج، الجزائر، 1992.

(29) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.

إسماعيلية"(30) للدكتورة ةبوبة مجاني، على غرار "ثورة أبي يزيد"(31) للشيخ سليمان بن الحاج، وكلها بحوث جادة في الميدان مكنتني من توضيح بعض الغموض الذي يكتنف المادة الخبرية.

وقد تيسر لي الإطلاع على بعض المراجع الأجنبية، والتي يأتي في مقدمتها: كتاب "L'histoire de l'Afrique du nord"(32) لـ "شارل أندري جوليان Charles André Julien"، وقد أفادني هذا الكتاب وبخاصة في معرفة سنة إعادة تشكيل جيش عبيد الله المهدي بعد مقتل أبي عبد الله الشيعي وأعوانه من الكتاميين، والتي حددها بـ 300هـ/912م، بالإضافة إلى كتاب "La religion musulmane en berbérie"(33) لـ "ألفرد بل Alfred Bel"، وكتاب "Les schismes dans l'islam"(34) لـ "هنري لاووست Henry Laoust"، وقد كان اعتمادنا على هذه المراجع بالقدر الذي يخدم الموضوع، لأن الباحث لابد أن يكون على حذر عند التعامل معها.

ورجاؤنا أن تكون هذه الدراسة المتواضعة قد فتحت أفاقا جديدة للبحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب الإسلامي. الذي لم ينل خطه بعد من البحث والدراسة ولا يفوتني في هذا المقام إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من أسهم من قريب أو من بعيد في إخراج هده الدراسة غالى النور ،واحسب أن كلمات الشكر والعرفان لا توفي حق مشرفي الاستاذ مرمول محمد الصالح ،أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بقسنطينة ،والذي فتح لي بيته ،واستفدت من غزير علمه ،كما أتوجه بالشكر والتقدير إلى الأستاذة بوبة مجاني التي لم تبخل علي بالنصح والتصويب.

والله من وراء القصد

الباحث

(30) مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، 2003.

(31) دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، ط1، 1981.

(32) Payot، Paris، 1952.

(33) Paris، 1938.

(34) Payot، Paris، 1965

عرض لأهم المصادر والمراجع وتحليلها:

لقد اعتمدنا في بحثنا على عدد من المصادر والمراجع المتنوعة في موضوعنا ا، وتتمثل في كتب التاريخ والجغرافية، والتراجم والطبقات والسير والرحلات، وغيرها، ولعل أبرزها:

1- كتب التاريخ:

ويلاحظ أن من بين المصادر الأصلية في هذا البحث، التي تمثل مكان الصدارة أعمال أنبغ فقهاء الشيعة الإسماعيلية وأعلام علمائهم أبي حنيفة النعمان بن محمد بن حيون التميمي (ت363ه/974م)، فقد عاش لفترة طويلة، وهو على مذهب أهل السنة، ومن ثم كانت له علاقات برجال أهل السنة، جاهد للإبقاء عليها بعد انضمامه إلى الحركة الإسماعيلية، وفي خدمة الخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب الإسلامي، وهو معاصر لما سجله من أحداث عن هؤلاء وأولئك، وبحكم ارتباطاته المختلفة، فقد كان مطلعا على جميع الآراء، وعلى سير الأوضاع الاجتماعية، والوثائق أيضا، وصنفت أعماله الأدبية والتاريخية، والتي اختصت بالعقائد تلقائية، أثناء ملازمة أشهر خلفاء الدور المغربي، وهو المعز لدين الله الفاطمي، أما ما يهمنا من هذه المصادر:

أ- "رسالة افتتاح الدعوة"[1]، والتي تعد قصة متكاملة عن الحركة الإسماعيليةلا سيما في دورها المغربي، والتي تطورت إلى نظام خلافة، وفي هذا المؤلف، إشارات عن تنظيمات الداعي أبي عبد الله الشيعي، وعن أحداث المنطقة، وردود الفعل المختلفة من انتشار الحركة الإسماعيلية، خلال فترة الدراسة، كما يتضمن تفاصيل هامة لأحداث اجتماعية لا غنى للدارس في التاريخ الاجتماعي عنها؛ كالتعرف عن مكانة كتامة الاجتماعية وعن دورها في قيام الخلافة، وأيضا بعض العادات السائدة في ا تمع، كصفة الكرم والشجاعة وتوقير العلم والعلماء..

والملاحظ أن كلا من ابن الأثير، وابن خلدون والمقريزي، والنويري اعتمدوا على رواية النعمان الخاصة بأحداث كتامة وإفريقية، إذ يبدو تأثير القاضي النعمان جليا في أكثر من موطن[2]، ويرقى حتى إلى استخدام نفس العبارات والصيغ اللغوية!.

---

[1] تحقيق: فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، د.ت.

[2] قارن مثلا: بين ما جاء في "الاتعاظ" للمقريزي، ج1، ص93، ونص "الافتتاح" للقاضي النعمان، ص335.

ب- "ا ﺎلس والمسايرات"[3]، لا غرو أن هذا الكتاب يعد وثيقة هامة لمعرفة الدور المغربي للخلافة الفاطمية، إذ يعكس سياسة خلفاء هذا الدور تجاه الحركات المناهضة لحكمهم، سواء كانوا من كتامة أو زناتة، أو مكناسة، وعن علاقا ﻢ المختلفة، وقد استفدنا من الكتاب في أغلب مراحل البحث، لاسيما في فصليه الأول والثاني، ولا يخلو من موضوعات اجتماعية ﺗﻢ بموضوع الدراسة، كالعادات والتقاليد، ويمكننا من خلاله من التعرف أن الضرائب كانت السبب الحقيقي في قيام ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني، على خلاف ما يروج له في بعض المصادر السنية، التي تجمع في معظمها على أن السبب في ثورته مذهبي أولا وأخيرا.

ج- ويركز كتاب "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، لابن عذارى[4] المتوفي سنة 712ﻫ/1312م، وبخاصة جزئه الأول، وبوضوح في مسألة "الضرائب المتنوعة" التي فرضها الفاطميون على سكان المغرب الإسلامي، وكيف آل بسببها وضعهم الاجتماعي والاقتصادي؛ وإذا كانت رواية "ابن عذاري" تخالف ما جاء عند "النعمان" و"ابن خلدون"، و"ابن الأثير"، فهذا لا ينقص من قيمتها الإخبارية، كو ﺎ تعرضت لأحداث كثيرة تختص بالعصر الفاطمي- محور دراستنا- لم يشر إليها هؤلاء، وخاصة حول علاقات الخلفاء مع قبيلة كتامة، وجماهير أهل السنة، كما انفردت روايته- دون سواها- بتأريخ مفصل حول الأوبئة التي حلت ببلاد المغرب الإسلامي، مثل وباء سنة 303ﻫ/915م[5]، وسنة 307ﻫ/919م[6].

د- أما كتاب "عيون الأخبار وفنون الآثار"[7] للداعي إدريس عماد الدين القرشي المتوفى سنة 827ﻫ/1423م، فرغم اهتمامه بالتاريخ السياسي والعسكري لخلفاء الخلافة الفاطمية في طورها المغربي، إلا أن ميزة الكتاب تكمن في أنه:

* تناول أهم الهجرات التي عرفها سكان بلاد المغرب الإسلامي، طيلة حكم الفاطميين والثورات التي قامت ضدهم.

---

(3) تحقيق: الحبيب الفقي، وإبراهيم شبوح، ومحمد اليعلاوي، الجامعة التونسية، تونس، 1978.

(4) أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي، تحقيق: ج.س.كولان، وليفي برفشال، دار الثقافة، بيروت، 1980.

(5) نفس المصدر، ص173.

(6) نفسه، ص181.

(7) تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1985.

* كما تعرض إلى بعض صفات كتامة من كرم[8] وشجاعة ومروءة، وغيرها من الصفات- والتي لا ريب- اتشترك فيها عامة أهل المغرب الإسلامي.

* تناول أيضا وظائف العبيد (صقالية، سودان، روم)، سواء في ا ال الإداري أو العسكري أو الاجتماعي، حتى أن هؤلاء أصبحوا قوى تنافس بعض القوى في الزعامة كتامية وصنهاجية، كان لها وزن في السلطة.

هـ- ولا شك أن مؤلفات "المقريزي" من أشهر المصادر التي أفادت بحثي، واعتمدت عليها في مختلف مراحله، لاحتوائها على مادة غزيرة، لأن المقريزي نقل رواياته عن كتب كثيرة فقدت، ولم تصل إلينا، والتي التزم المقريزي فيها بالموضوعية والحياد في تناوله لتاريخ الخلافة الفاطمية، ولو أنه اعتمد في أغلب رواياته على القاضي النعمان، إلا أن كتابه:

"اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء"[9]، فقد امتاز بدقة المعلومات ووضوحها وبخاصة عند تعرضه للدور الذي لعبته كتامة، والذي ابتدأت حلقاته الأولى ببلاد كتامة، وانتهت إلى مصر وبلاد الشام، دون إهمال تفاصيل هامة ذات صلة وثيقة بالأوضاع الاجتماعية مثل الإشارة إلى الآثار التخريبية التي أحدثتها ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني ضد الحكم الفاطمي، وما نجم عنها من نتائج، كان أبرزها هجرة السكان.

و- وتتضح أهمية كتاب "أخبار ملوك بني عبيد وسير م"[10]، لابن حماد المتوفي سنة 628هـ/1231م، في أنه تتبع مكانة القبائل المغربية اجتماعيا، التي كانت على ارتباطها بالسلطة منصبا بما تحققه من انتصارات ضد المخالفين، وتركيزه من جهة أخرى على مسألة الأموال التي اغدقها الخلفاء لاستمالتهم، كما أمكننا من خلاله التعرف على بعض مظاهر ثروة الخلفاء، التي أنفقوها في بناء القصور والمتـ هات وما إلى ذلك.

2- كتب الطبقات والتراجم والسير:

---

[8] المرجع نفسه، ص91.

[9] تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، ط2، 1996.

[10] تحقيق: جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

ولهذه الكتب أهمية خاصة، لأ ا تكمل النقص الموجود في بعض المصادر التاريخية، وتقدم ترجمة وافية لأشهر الشخصيات العامة والخاصة، وتبرز مدى مشاركة هؤلاء في الحياة السياسية والاجتماعية وغيرها ، لذلك تعد على قدر كبير من الأهمية لا سيما ما تعلق منها بالجوانب الاجتماعية من مختلف النواحي، لاسيما منها الاجتماعية، والتي منها:

أ- "رياض النفوس في علماء القيروان وإفريقية وتونس، وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم"[11]، لأبي بكر عبد الله بن محمد المالكي المتوفي في سنة 474هـ/1081م، فهو ذو قيمة تاريخية عظيمة، إذ يزخر بإشارات اجتماعية، تتصل بالمأكل والملبس المأكل والملبس، حيث قدم لنا معلومات جليلة في الفصل الأخير من البحث.

ب- "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"[12]، لابن أبي أصيبعة، وقد استفدنا من هذا الكتاب وبخاصة في إبراز مظاهر الأ ة التي أحاطت بخلفاء الفاطميين، حيث أ م أحاطوا أنفسهم بطائفة من الأطباء، فكانوا ملازمين لهم في القصور أو في تنقلا م، وقد كان أغلبهم من اليهود، وهنا تبدو ميزة الفاطميين عن غيرهم في تسامحهم مع أهل الذمة.

ج- ويحفل كتاب "معالم الإيمان في معرفة رجال أهل القيروان"[13] للدباغ، المتوفي في سنة 696هـ/1297م، بمعلومات غزيرة عن سياسة الفاطميين المذهبية، وعلاقتهم برجال السنة المالكية، وكيف أن هؤلاء كانوا حجرة عثرة ضد انتشار مذهبهم، الأمر الذي جعلهم يتعرضون للقتل أو التعذيب، وقد أبرز "الدباغ"، أسباب انضمام المالكية إلى جانب ثورة أبي يزيد اليفرني، الذي تظاهر أمامهم بإحياء مذهب الإمام مالك، كما لا يخلو الكتاب من إشارات اجتماعية مثل إسهام علماء المالكية في المحافظة على تماسك ا تمع من خلال إحيائهم للأخلاق الحميدة، كإطعام الطعام، وحسن الجوار، وتكافل أفراد ا تمع فيما بينهم...

---

(11) تحقيق: بشير البكوش، وأحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، للطباعة والنشر، بيروت، 1981م.

(12) دار الثقافة، بيروت، 1991، ط3.، ص160 .

(13) المطبعة العربية التونسية، تونس، 1320م.

د- وتعد "سيرة الحاجب جعفر"[14] لليماني، محمد بن محمد، المتوفي في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وثيقة إسماعيلية هامة، للإطلاع على أسرار المذهب، ودور الستر، والظهور، كما لا تخلو من إشارات اجتماعية، مثل التطرق الى زواج الخليفة عبيد الله المهدي بزواج عبيد الله المهدي بابنة عمه- دون ذكر اسمها- وظاهرة اشتغال المرأة السجلماسية بتجارة الرقيق.

هـ- "سيرة الأستاذ جوذر"[15]، للعزيزي، الجوذري، المتوفي في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وقد أمكننا من خلالها تحديد مكانة كتامة الاجتماعية ، وأ ا كانت من أشد قبائل البربر تعلقا بالدولة، وتأييدا لها، و ذا المعنى تدعم ما ذكر في مصادر تاريخية أخرى ، كما اضطلعنا بدور العبيد، وتقلدهم لأسمى الوظائف سواء في خدمة القصور والدواوين، والجيش، وأيضا البحرية.

و- أما "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"[16]، لابن خلكان، فقد أفادني في تقديم تراجم وافية لأهم الشخصيات السياسية والعلمية والأدبية، والتي أسهمت في أحداث الخلافة الفاطمية و في تطوير الحياةببلاد المغرب الاسلامي مجال الدراسة .

3- كتب الجغرافيا والرحلات:

وقد أمدتنا هذه المصادر بالعديد من التفاصيل التي أغفلها المؤرخون، وترجع أهميتها أيضا إلى أن هؤلاء الرحالة الجغرافيين قاموا بتسجيل كل ما عاينوه ، فقدموا لنا مادة علمية قيمة عن أحوال العديد من المدن والأقاليم التي قاموا بزيار ا وطافوا ا، نذكر منها:

أ- "صورة الأرض"[17]، لابن حوقل النصيبي، المتوفي سنة 367هـ/978م، الذي زار بلاد المغرب الإسلامي في حوالي سنة 330هـ/841م، فهو ذو أهمية بالغة، فبالإضافة إلى وصفه الدقيق للمنطقة وحدودها الجغرافية، فقد أطلعنا بمعلومات تاريخية هامة،اذ انفردت وانفرد في بعض أجزائه بنصوص لم ترد في المصادر الأخرى، مثل كتب التاريخ العام، لاسيما فيما يتعلق ببعض أخلاق و عادات

---

(14) تحقيق ونشر: ايفانوف، مجلة كلية الآداب، مج، ج1، القاهرة، 1936.

(15) تحقيق: محمد عبد الهادب شعيرة، وكامل حسين، دار الفكر، القاهرة، 1954.

(16) تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1977.

(17) منشورات مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

أهل المغرب الإسلامي، كما زودنا بمعلومات اقتصادية هامة عن دخل المغرب الإسلامي في عهد الخلافة الفاطمية.

ب- أما كتاب "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب"[18]، للبكري، المتوفى سنة 487هـ/1094م، فقد أسهب في عرض تواريخ المدن المغربية نقلا عن محمد بن يوسف الوراق المتوفي سنة 363هـ/973م[19]، ورغم أنه لم يزر المنطقة إلا أنه نقل لنا معلومات غاية في الأهمية، عن خصائص المغرب الإسلامي وثرواته الاقتصادية، فضلا عما ذكره عن الأوضاع الاجتماعية لعناصر السكان، والتوزيع الجغرافي لأهل الذمة من النصارى واليهود بالمنطقة.

جـ- واستفدنا أيضا من كتاب "معجم البلدان"[20]، لياقوت الحموي، المتوفي سنة 626هـ/1229م، وبخاصة في تحديد مواطن كتامة، وبلاد المغرب الإسلامي عموما، ورغم أن رواية "ياقوت" اعتمدت في بعض النصوص على ما جاء في كتاب الجغرافيا "للبكري"، غير أن هذا لا ينقص من قيمتها، حيث تعد من المصادر الأساسية لمعرفة أسماء المدن المغربية، وأهم الأنشطة الاقتصادية ا ، لاسيما في مرحلة الدراسة.

د- ولابد من الرجوع إلى كتاب "الرحلة"[21]، للتجاني، المتوفي في أوائل القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، للاستفادة من بعض التفاصيل الجغرافية الدقيقة، التي أهملها الجغرافيون الأوائل، هذا وقد انفرد صاحب الرحلة بسرد معلومات تاريخية هامة، قلما نعثر عليها حتى في أمهات المصادر الإخبارية، مثل، إنشاء الخليفة عبيد الله المهدي لجامع طرابلس الأعظم سنة 299هـ/911م[22].

II) المراجع:

* الدراسات الحديثة:

---

(18) مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.

(19) عبد الواحد دنون طه، "دراسة في موارد أبي عبيد الله البكري عن تاريخ إفريقية والمغرب"، دراسات أندلسية، العدد 3، 1989، ص276.

(20) تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.

(21) تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، تونس، 1958.

(22) المصدر نفسه، ص253.

كما استندت هذه الدراسة إلى مجموعة من المراجع العربية والأجنبية التي لا غنى عنها بالنسبة لموضوعنا نذكر منها: كتاب "السياسية الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي"[23] للدكتور مرمول محمد الصالح، وكتاب: "تاريخ المغرب وحضارته"[24] للدكتور حسين مؤنس، وأيضا: "المغرب الإسلامي"[25] للدكتور الحبيب الجنحاني، مع الإشارة إلى بحثه المعنون بـ "السياسة المالية للدولة الفاطمية بالمغرب"[26]، وايضا كتاب: "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع (9-10م)"[27] للأستاذ جودت عبد الكريم يوسف.

كما استعنت بأبحاث ودراسات حديثة، لها علاقة وثيقة بموضوع الدراسة، التي نذكر منها، كتاب "دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية"[28] للدكتور موسى لقبال، وكتاب "دراسات إسماعيلية"[29] للدكتورة ةبوبة مجاني، على غرار "ثورة أبي يزيد"[30] للشيخ سليمان بن الحاج، وكلها بحوث جادة في الميدان مكنتني من توضيح بعض الغموض الذي يكتنف المادة الخبرية.

وقد تيسر لي الإطلاع على بعض المراجع الأجنبية، والتي يأتي في مقدمتها: كتاب "L'histoire de l'Afrique du nord"[31] لـ "شارل أندري جوليان Charles André Julien"، وقد أفادني هذا الكتاب وبخاصة في معرفة سنة إعادة تشكيل جيش عبيد الله المهدي بعد تصفية أبي عبد الله الشيعي وأعوانه من الكتاميين، والتي حددها بـ 300هـ/912م، بالإضافة إلى كتاب " La religion musulmane en berbère"[32] لـ "ألفرد بل Alfred Bel"، وكتاب " Les schismes

---

[23] د.م.ج، الجزائر، 1983.

[24] بيروت، ط1، 1992.

[25] الدار التونسية، تونس، د.ت.

[26] مجلة الأصالة، العدد 49، 50، السنة السادسة، رمضان- شوال 1397هـ/سبتمبر- أكتوبر 1977.

[27] د.م.ج، الجزائر، 1992.

[28] الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.

[29] مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، 2003.

[30] دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، ط1، 1981.

[31] Payot، Paris، 1952.

[32] Paris، 1938.

"dans l'islam[33] ﻟ "هنري لاووست Henry Laoust"، وقد كان اعتمادنا على هذه المراجع بالقدر الذي يخدم الموضوع، لأن الباحث لابد أن يكون على حذر عند التعامل معها.

ورجاؤنا أن تكون هذه الدراسة المتواضعة قد فتحت أفاقا جديدة للبحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب الإسلامي. الذي لم ينل خطه بعد من البحث والدراسة ولا يفوتني في هذا المقام إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من أسهم من قريب أو من بعيد في إخراج هده الدراسة غالى النور ،واحسب أن كلمات الشكر والعرفان لا توفي حق مشرفي الاستاذ مرمول محمد الصالح ،أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بقسنطينة ،والذي فتح لي بيته ،واستفدت من غزير علمه ،كما أتوجه بالشكر والتقدير إلى الأستاذة بوبة مجاني التي لم تبخل علي بالنصح والتصويب.

والله من وراء القصد

الباحث

★ ★ ★

---

[33] Payot، Paris، 1965

التمهيـــد

تمهيـد:

قبل أن نعرج عن الأوضاع الاجتماعية لبلاد المغرب **الإسلامي** على عهد الخلافة الفاطمية، لابد من الحديث عن البدايات الأولى لظهور فكرة التشيع، ودواعي اختيار هذه المنطقة من العالم الإسلامي لنشر مثل هذه الـ عة الخارجية، ثم تقييم مدى نجاح أصحا ا في تحقيق أهدافهم السياسية المنشودة.

لقد مرت الخلاف الفاطمية مثل باقي الدويلات الإسلامية التي قامت في بلاد المغرب الإسلامي بمرحلتين أساسيتين هما: مرحلة نشر الدعوة، ثم مرحلة تكوين الدولة وإرساء المؤسسات، والتي سنبينها كالآتي:

1- مرحلة نشر الدعوة:

إن "التشيع" كما ذكر "الشهرستاني" مبدأ "يقوم على حب آل البيت من عترة الرسول (ص)، ويقضي بحصر الإمامة بعده في علي بن أبي طالب بالنص، ثم في أبنائه وأحفاده"[1]، أما الفئة التي والت عليا وناصرته سميت "بالشيعة" لكو ا شايعته وبايعته على الخلافة بعد وفاة الرسول (ص)، وأصبحت الإمامة والولاية فيما بعد من اكبر المسائل الخلافية بين المسلمين[2].

وقد تحول الخلاف النظري بين بني العباس من جهة، والعلويين من جهة أخرى، إلى مواجهات مسلحة بين الطرفين، زادت في تعميق الهوة بينهما، وحفل العصر العباسي الأول، بظهور انتفاضات عارمة، كانت تواجه بشدة وضراوة تزعمها الفرع الحسني[3]، ويفهم من رواية ابن خلدون[4]، أن الشيعة انقسمت إلى فرقتين، فرقة تقول بإمامة "موسى الكاظم بن

---

(1) الملل والنحل، ج1، ص278.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص697 وما بعدها.

(3) نسبة إلى "الحسن بن علي ابن أبي طالب الهاشمي القرشي، خامس الخلفاء، وثاني الأئمة الاثني عشرية عند الإمامية"، أنظر، الزركلي، الأعلام، ج2، ص199.

(4) نفس المصدر، ص705، 706.

جعفر الصادق، وتعتقد أن إمامها الاثني عشر غائب في سرداب، وتنتظر قيامه منذ غيبته، وفرقة ترى إمامة إسماعيل ابن جعفر الصادق، وتقول بإمام مستور حي يعمل سرا لإقامة دولة، وهي الفرقة التي سميت "بالإسماعيلية" وإليها ينسب الخلفاء الفاطميون الذين قاموا بالمغرب الإسلامي.

وقد اختارت هذه الفرقة من مدينة سلمية[1] مركزا لها لجلب الأنصار والمؤيدين، ومنطلقا لدعا ا في أنحاء العالم الإسلامي، والجزر البعيدة عن حاضرة الخلافة العباسية في بغداد[2].

ولا يمكن اعتبار اختيار الشيعة الإسماعيلية لبلاد المغرب الإسلامي لتكون مهدا لنشر أفكارها من محض الصدفة، بل إن خطاب جعفر الصادق (ت145هـ/762م) لداعييه اللذين أرسلهما إلى المغرب قائلا لهما: "إن المغرب أرض بور فاذهبا فاحرثاها ومهداها حتى يجيء صاحب البذر"[3]، هو نص ينم على تحضير مدروس لهذا المشروع الدعوي، وإدراك تام لأحوال المنطقة، وإن كنا لا نتفق مع من قال، بأن المغرب الإسلامي كان مجالا خصبا لانتشار البدع، وأسهم في انتشار الأفكار الشيعية[4]، وبوصول هذين الداعيين إلى مرماجنة[5] من بلاد المغرب الإسلامي، نزل أحدهما ا ويدعى "أبو سفيان" عند موضع يقال له "تالا"[6]، أما الثاني، ويدعى "الحلواني" نزل بموضع يقال له الناظور"[7].

---

(1) هي أرض حمص من بلاد الشام، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص272.

(2) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص1.

(3) انظرالمقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج1، ص41.

(4) وممن ذهب هذا الرأي، محمد عبد الحي محمد شعبان في كتابه : الفاطميون ، ص225.

(5) قرية من قرى قبيلة هوارة بإفريقية، ياقوت الحموي، نفس المصدر،ج5،ص109، ولم يحدد موقعها، ابن حوقل، صورة الأرض، ص84، البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص715.

(6) وتقع شرق تبسة، على الحدود الجزائرية التونسية ، مرمول محمد الصالح، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ص31.

(7) القاضي النعمان، نفسه،ص 27 .

واعتمادا على رواية "القاضي النعمان"، "فإنه اعتنق مذهبهما عدد من أهل مرماجنة، والأربس، وكتامة ونفزة وسماتة"[(1)].

ومن خلال ما تقدم تبين لنا أن الدعوة الإسماعيلية قد وجدت بالمغرب الإسلامي، قبل قدوم أبي عبد الله الشيعي بزمن طويل، وأصبح لها مراكز لانطلاق الدعاة، وجلب الأتباع، وبدت نوايا أصحا ا في خلق ما يسمى "بالكيان السياسي".

أما عن أسلوب الدعاية الإسماعيلية قبل قيام الخلافة الفاطمية، فيختلف عنه بعد قيامها، حيث ارتكز على الإقناع السلمي[(2)]، لنشر المذهب تماشيا والظروف العامة، هذا زيادة عن حاجتها الماسة إلى قوة عسكرية تساندها عند قيام الدولة، فحين قدوم أبي عبد الله الشيعي إلى بلاد كتامة من المغرب الإسلامي وجد الأمر ممهدا، والمذهب الإسماعيلي قد أخذ شوطا معتبرا، فسار على منوال سابقيه في التدرج والاعتدال عند نشر دعوته[(3)].

لقد بدا واضحا تأثير أبي عبد الله الشيعي في مجتمع كتامة، بما أظهره من أخلاق سامية وحسن معاملة، ما جعل الناس على اختلاف طبقا م الاجتماعية ينضوون جماعات ووحدانا في دعوته، ومما جاء في هذا الصدد: "وفشت دعوة أبي عبد الله، وأجابه، ودخل أمره طبقات من الناس"[(4)]، ويفهم من رواية "القاضي النعمان"، حينما عبر "ودخل أمره طبقات من الناس" أن من دخلوا في دعوة الشيعي كانوا على مراتب اجتماعية متفاوتة.

وأشارت بعض المصادر إلى محاولات أبي عبد الله الشيعي لمحاربة بعض السلوكات الاجتماعية القبيحة، والتي كانت سائدة عند بعض أهالي المغرب الإسلامي، مثل شرب الخمور، وظاهرة الشذوذ الجنسي، وعزمه الشديد على القضاء عليها[(5)]، ويبدو أن أبا عبد

---

(1) الافتتاح، ص26 وما بعدها.

(2) Charles (A. J) , Histoire De L’afrique Du nord , payot , paris , 1952 , p 54.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، ص125.

(4) القاضي النعمان، الافتتاح ، ص117.

(5) نفس المصدر ، ص246، 247، ابن حوقل، صورة الارض ، ص91.

الله الشيعي، كان يرمي من وراء ذلك إلى إصلاح ا تمع، وكسب قلوب العامة، عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا شك أن هذا الأسلوب المتبع من قبل الداعي كان الغرض منه الدعاية لمذهبه، وجلب الأنصار.

وقد ذهب "المقريزي" إلى توضيح هذا الأسلوب الدعائي الناجح من أبي عبد الله الشيعي بين أهالي المغرب الإسلامي، من ذلك أنه حينما نزل بمكان يقال له "فج الأخيار"، قال لأنصاره: "إن هذا المكان ما سمي إلا بكم"، ثم يواصل حديثه إليهم: "وقد جاء في الحديث أن للمهدي هجرة تنبو عن الأوطان، في زمن محنة و افتتان، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان، قوم مشتق اسمهم من الكتمان، فأنتم كتامة و بخروجكم من هذا الفج سمي بفج الأخيار"[1]، ثم إن مثل هذا الخطاب أوجد وقعا في نفوس قبائل كتامة فازدادوا تعلقا ذا الداعي، فأصبح رؤساؤهم ينوبون عنه في الدعوة إلى مبادئ هذا المذهب الجديد بين أقوامهم[2]، ويبدو أن فقهاء القيروان، قد وجدوا في حسن استقبال الداعي لهم، ما أثلج صدورهم، فرغبوا في دعوته، لاسيما أ م كانوا يمثلون السلطة الدينية، التي تلتف بكل دولة تسعى إلى الظهور والسيادة[3].

ويبدو أن أبا العباس قد تحين فرصة خروج أبي عبد الله الشيعي لاتنقاذ عبيد الله المهدي من سجنه بسجلماسة، ليقوم باضطهاد فقهاء القيروان، وإرغامهم على تقبل المذهب الإسماعيلي، بل وأقدم على قتل بعضهم، وتعذيب آخرين[4]، وقد أثار هذا التصرف من أبي العباس المخطوم حفيظة أهل القيروان، لكن أبو عبد الله الشيعي تدارك الموقف فعاب على

---

[1] القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص 72.

[2] نفس المصدر ، ص146.

[3] وقد أشار "القاضي النعمان" إلى هذا بقوله: "وخرج شيوخ القيروان وفقهاؤهم لتلقي أبي عبد الله فلقوه، وسلموا عليه، وهنأه بالفتح، فأقبل عليهم بوجهه، ورد عليهم أحسن رد.."، أنظر : الافتتاح ، ص243-244.

[4] ومما جاء في هذا الصدد "أنه في سنة 297هـ، قتل بالقيروان، إبراهيم بن محمد الفقي.. وأبو بكر بن هذيل.. علي بن أبي العباس، بتهمة الطعن في إمامة علي"، ابن عذاري، البيان، ص155، المالكي، رياض النفوس في علماء القيروان وإفريقية وتونس، ج2، ص49.

أخيه تصرفه بهذه الطريقة، قائلا له: "قد أفسدت علينا من أمر البلدواهلـه ما كانت بنا حاجة إلى إصلاحه"[1].

2- مرحلة تكوين الدولة:

إذا كان تكوين الدول مرهون بإرساء مؤسسات قوية، سواء كانت إدارية أو اجتماعية أو عسكرية، فإن هناك من اعتبر أن فترة ظهور عبيد الله المهدي برقادة وجلوسه على عرش الخلافة الفاطمية يمثل البداية الحقيقية لتكوين أول دولة شيعية في العالم الإسلامي[2]، بينما ذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى أن اللبنات الأولى لتكوينها كان على يد أبي عبد الله الشيعي[3].

ومهما يكن من أمر فإن الفاطميين قد حملوا معهم كل مقومات الدولة القوية إلى بلاد المغرب الإسلامي من خلال تنظيمات إدارية دقيقة ومتكاملة جند لها إطارات وموظفون عملوا في مختلف المصالح، وقد كان الفضل الكبير في وضع بعض معالمها من لدن الأغالبة، حيث أبقى الفاطميون بعض المصالح، وأضافوا إليها أخرى[4].

أ- المؤسسات الإدارية العامة:

ونعني بالمؤسسات الإدارية العامة تلك الدواوين التي رتبها الخليفة عبيد الله المهدي، حيث جعل لكل ديوان اختصاصاته وموظفيه، ويتمثل ذلك فيما يلي:

- **ديوان الخراج:** وقد كان الخراج من بين الموارد الهامة لبيت مال الفاطميين[5]، وهو يختلف عن الجزية، كون الخراج ضريبة على الأرض[6]، أما الجزية فتفرض على رقاب أهل

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق ، ص155، 156.

(2) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1، ص192.

(3) مرمول محمد الصالح، المرجع السابق، ص52.

(4) القاضي النعمان، الافتتاح، ص303، المقريزي، الاتعاظ، ج1 ، ص66.

Charles (A. J), Histoire de l'Afrique du nord. p.56.

(5) القاضى النعمان ، نفس المصدر ، ص303.

(6) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص262.

الذمة[1]، ويبدو أن ديوان "الضياع" الذي أنشأه عبيد الله المهدي كان من اختصاصات صاحب الخراج، بدليل أن الديوانين قد جمعا لرجل واحد، وكان ذلك في سنة 303هـ/915م[2].

- **ديوان العطاء:** ويظهر من خلال تسميته، أنه قد خصص لأعطيات الجند والموظفين في الدولة، وسائر النفقات، ويفهم من رواية "القاضي النعمان" أن نفقة ورواتب العبيد، كانت تسدد من هذا الديوان، إذ يقول بعد أن عقب على إنشاء الديوان: "وأمر بإثبات الموالي وأبناء العبيد فيه"[3].

- **ديوان الكشف:** وقد كان هذا الديوان من جملة الدواوين التي كو ا عبيد الله المهدي برقادة[4]، وإذا كانت المصادر قد سكتت عن ذكر اختصاصات هذا الديوان، فإن إشارة "ابن عذاري" تفيد بأن متوليه سنة 298هـ، كان أبو جعفر البغدادي مشتركا مع عمران بن أبي خالد بن أبي سلام[5].

- **ديوان أموال الهاربين مع زيادة الله:** وقد كان أبو عبد الله الشيعي أول من بادر إلى إنشائه، يفهم هذا من خلال ماذ كره "المقريزي": "أمر بجمع ما كان لزيادة الله من الأموال والسلاح وغيره، فاجتمع منه الكثير"[6]، ويبدو أن زيادة الله الأمير الأغلبي، قد خلف وراءه ثروة طائلة، قدر ا بعض المصادر، بـ "ألف مثقال من ضرب سكته"[7]، وهذا ما جعل الخليفة عبيد الله المهدي يفرد لهذه الأموال ديوانا خاصا"[8].

---

(1) بن سلام، كتاب الأموال، ص24.

(2) ابن عذاري، البيان ، ج1 ، ص173.

(3) الافتتاح، ص304.

(4) نفسه ، ص303.

(5) ابن عذاري،نفس المصدر ، ص162.

(6) الاتعاظ ،ج1، ص63.

(7) ابن عذاري، نفسه، ص169.

(8) القاضي النعمان، نفس المصدر ، ص303.

- **بيت المال:** ويعد بيت المال مؤسسة إدارية مهمتها إدارة مداخيل الدولة ومصاريفها العامة[1]، وهو أصل كل الدواوين، ويقع بيت المال تحت إشراف الخليفة، وهو وحده، الذي يختم عليه[2].

ب- المؤسسات الإدارية الخاصة:

لقد تعددت المصالح الإدارية في الخلافة الفاطمية، وكانت لا تقل أهمية عن المؤسسات السابقة، ونذكر منها "مصلحة البريد"، وتسمى أيضا "مصلحة الكتابة"، وهي شبيهة بما يعرف اليوم بـ "نظام المخابرات"، حسب جرجي زيدان[3]، وكان أشهر من تولى هذه المصلحة على عهد عبيد الله المهدي، أبو اليسر الشيباني، الذي كان كاتبا لبني الأغلب[4]، كما وجدت "مصلحة الحجابة"[5]، وقد تولاها "جعفر بن علي"، فسمي "بالحاجب"[6].

أما "مصلحة القضاء"، فقد أورد "القاضي النعمان"، أن عبيد الله المهدي، كان نفسه يباشر سماع المظالم، ويأخذ رقاع أهلها، ويسمع شكواهم[7]، لكن يبدو أن تولي الخليفة النظر في المظالم، كان في بداية قيام الخلافة، أي قبل تنصيب مصلحة القضاء، وتعيين القضاة، غير أن الأحكام كانت تقدر وفق ما ينص عليه المذهب الإسماعيلي[8].

---

(1) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج1، ص212.

(2) المقريزي، المصدر السابق، ص96.

(3) تاريخ التمدن الإسلامي، ج1، 230، مرمول محمد الصالح، السياسة الداخلية ، ص196.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، ص163.

(5) وقد استحدثت هذه المصلحة على عهد الدولة الأموية، والعباسية فيما بعد، للاستزادة أنظر: ابن خلدون، المقدمة ص779، جرجي زيدان، نفس المرجع ، ص249 وما بعدها .

(6) اليماني، سيرة الحاجب جعفر، ص107،108.

(7) الافتتاح، ص305.

(8) ابن عذاري، نفس المصدر ، ص159.

أما فيما يتعلق "بمصلحة السكة"[1]، فقد أبقى الخليفة عبيد الله على رأسها أبا بكر الفيلسوف، الذي كان قد عينه أبو عبد الله الشيعي أول الأمر[2].

ويمكن القول أن هذه المؤسسات السابقة، كانت أهم ترتيبات عبيد الله المهدي، على الأقل كمرحلة أولى، للإبقاء على مصالح الدولة قائمة في تسيير شؤو ا المختلفة، وإن وجدت مصالح ثانوية، فهي لا تخرج عن إطار تبادل وتنسيق للخدمات فيما بين المؤسسات جميعها.

ج- ولاية الأقاليم:

لقد قام ملك الفاطميين بالمغرب الإسلامي على أنقاض ثلاث دول، دولة الأغالبة، وبني مدرار، بني رستم[3]، فكان أن ورث الفاطميون رقعة جغرافية مترامية الأطراف؛ وبما أن الخليفة الفاطمي لا يستطيع تسيير كل هذه الأقاليم الممتدة بمفرده، كان من الطبيعي، أن ينوب عنه ولاة يتولون تسييرها، وإذا كان الخليفة وفق المذهب الإسماعيلي هو صاحب السلطة المطلقة، وفوق النور في طينته وتصرفاته، كما تنص عليه النصوص الإسماعيلية نفسها[4]، فإنه بذلك يولي من يشاء ويعزل من يشاء، عملا ذا الحق، وهذا ما يسمى اليوم بـ "مركزية التسيير"، وقد لا يخلو هذا الأسلوب من عيوب أونقائص، لاسيما إذا استغل الوالي سلطته لقهر الرعية، حيث لا تملك هذه الأخيرة قبوله أو رفضه، طالما أنه مفوض من طرف الخليفة.

والظاهر أن عبيد الله المهدي قد انطلق في تولية ولاة الأقاليم من القاعدة التي تقول أن "الولاء شرط الولاية"[5]، أي وفق ما تنص عليه المبادئ الإسماعيلية، ولذلك نجد أن جميع

---

(1) يعرفها "ابن خلدون" بأ ا "مصلحة تقوم بالنظر في النقود المتعامل ا بين الناس، وحفظها مما يداخلها من الغش أو النقص، وهي من الوظائف الدينية التي تندرج تحت الخلافة".انظر، المقدمة ، ص747.

(2) القاضي النعمان، المصدر السابق، ص250.

(3) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص66.

(4) القاضي النعمان، ا الس والمسايرات، ص240.

(5) نفس المصدر ، ص158.

هؤلاء الولاة، كانوا من أنصار الدعوة الإسماعيلية، قدموا خدمات للدولة، وقد كانوا في الغالب من رجالات كتامة، ومنهم، ماكنون بن ضبارة الإيكجاني الذي استعمله على ولاية أطرابلس[1] كما جعل إبراهيم بن غالب المزاتي على ولاية سجلماسة[2]، أما ولاية المهدية ورقادة، وغيرهما من الأعمال فجعلت لأفلح بن هارون الملوسي[3].

والملاحظ أن هؤلاء الولاة قد تمتعوا بالنفوذ المطلق في ولايا م، بدليل أن الخليفة عبيد الله المهدي لم يكترث لشكاوى السكان في تلك الأقاليم البعيدة، وكل ما في الأمر أنه كان يرسل جيوشه لتأديب الثائرين، مثل ما حدث في مدينة أطرابلس[4]، وغيرها من المدن، كما سنبينه في حينه.

(1) ابن عذاري، المصدر السابق ، ص168.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج5، ص166.

(3) الداعي إدريس القرشي، تاريخ الخلفاء الفاطميين ،ج5 ، ص22.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص140، حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، ج2، ص406.

الفصل الأول:

السلطة والمجتمع

- السلطة وعلاقتها ببعض القبائل المغربية.
- السلطـة والعلمـاء.
- السلطـة والعبيـد.

• السلطة وعلاقتها ببعض القبائل المغربية :

لا غرو في أن رسوخ أي سلطة سياسية في مجتمع ما، مرتبط دائما بمدى اضطلاع القائمين عليها بطبيعة تركيبته الاجتماعية، وميول أفراده السياسية، أو في أحسن الأحوال قدرة هؤلاء السياسيين على تصور علاقة ناجحة قد تنشأ بين الحاكم الذي يمثل السلطة العليا في ا تمع، هذا من ناحية، ومطامح المحكوم في تحقيق عدالة اجتماعية تزول معها كل الفوارق الطبقية بين فئات ا تمع ولنا من جهة أخرى، ولنا أن نتساءل في هذا المقام، ما إذا كانت السلطة الفاطمية نجحت فعلا في تحقيق هذا الهدف في بلاد المغرب الإسلامي، والذي عرف بتنوع قبائله، وتباين أطيافه وعصبياته[1]؟!.

ولا شك أن بحث هذه الإشكالية الاجتماعية، لا تستكمل جميع جوانبها، إلا بوضعها ضمن الإطار السياسي والاقتصادي، لما له من ارتباطك وثيق بالتاريخ الاجتماعي، بل إن الظاهرة الاجتماعية في حد ذا ا، ما هي إلا نتيجة حتمية لتفاعل كل هذه المعطيات فيما بينها.

ويبدو أن تفضيل الفاطميين لقبيلة كتامة دون سواها بالمكانة الاجتماعية المرموقة، وتمكينهم إياها بالمناصب العليا في هرم الدولة- على الأقل- كمرحلة أولى من تأسيسها، قد أحيا من جديد ذلك الصراع التقليدي بين باقي القبائل الأخرى، وخاصة بين كتامة وزناتة[2].

ولا شك أن السلطة الفاطمية حاولت أن تستثمر هذا الصراع القبلي، حتى تبقي على مصالحها السياسية قائمة في البلاد، متخذة في ذلك كل الإغراءات والذرائع، فكانت أحيانا تلجأ إلى فرض نفوذها عن طريق القوة العسكرية، وأحيانا أخرى تتبع سياسة الإغراءات سواء بالمناصب، أو الامتيازات،وشراء الذمم بالأموال، أو أن تزرع بذور الخلاف بين قبيلة وأخرى، كما سيأتي بيانه.

---

[1] انظر : ابن حوقل، صورة الأرض، ص97، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص461، وما بعدها، السلاوي الناصري، الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى، ج1، ص64، ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان،ج 1 ، ص83.

[2] أندري برنيان وآخر، الجزائر بين الماضي والحاضر، ص100.

يرى فريق من الباحثين المعاصرين[1] بأن المصادر التاريخية لم تشر إلى اي دور إيجابي لقبيلة زناتة البترية، أثناء حكم الفاطميين لبلاد المغرب الإسلامي،م عدا ما ذكرته عرضا عن كو ا مثلت أكبر حركات المقاومة لسلطة الفاطميين!.

لكن هل معنى هذا أن إقصاء زناتة من قبل الفاطميين يشكل أحد جذور الصراع بينها وبين قبيلة كتامة، لاسيما بعد أن حظيت هذه الأخيرة بنفوذ واسع في إدارة دواليب الحكم، وهل يمكن اعتبار أن التنافس بين القبيلتين يدخل في إطار الصراع القبلي؟.

لقد اعتبر "ابن خلدون"، أن "زناتة": "من القبائل الضاعنة الرحالة، تقوم حيا ا على الفلح والرعي، والاقتصار على الضروري من الأقوات، والملابس، والمساكن، وسائر الأحوال"[2]، وقد لاحظ "ابن حوقل": "أن أكثر زروعهم الشعير، وإياه يأكلون، إلى جانب الحنطة والقمح"[3].

أما فيما يتعلق بمواطن هذه القبيلة، فهي تشمل صحراء المغرب، ما بين غدامس إلى وادي الساورة، ثم طلعت جماعات منهم إلى التل، فاستوطنوا المغرب الأوسط، وملأت سهوله وجباله، كما استوطن البعض منهم القسم الشرقي من المغرب الأقصى، إلى حدود جبال "تازة"، وهم موجودون في كل مكان من بلاد المغرب الإسلامي[4].

أما من الناحية الإستراتيجية "فزناتة" تمثل همزة وصل بين المغرب الأقصى من جهة، وباقي أجزاء المغرب الأوسط (الجزائر)، والمغرب الأدنى (تونس)، من جهة أخرى، وقد أورد "ابن خلدون" في هذا الصدد: "فكانت مواطن هذا الجيل من لدن جبهات طرابلس إلى جبل أوراس والزاب إلى قبلة تلمسان، ثم إلى وادي ملوية، وكانت الكثرة والرياسة فيهم قبل الإسلام بجراوة ثم لمغراوة، وبني يفرن.."[5]، وبالإضافة إلى ذلك فإن منطقة زناتة تعد مركز

---

(1) محمد بن عميرة، دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، ص173، موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص351، مرمول محمد الصالح، السياسة الداخلية ، ص 179.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص121.

(3) صورة الأرض، ص86.

(4) عبد الوهاب منصور، قبائل المغرب، ج1، ص311.

Megherbi. (A)، La pensée sociologique d'Ibn Khaldoun. p132.

(5) ابن خلدون، العبر، ج7، ص7، 8.

اتصال مستمر بين البدو الرحل وسكان المدن والقرى، وهو الأمر الذي شجع على ازدهار الحركة التجارية ا، وخاصة على الطريق المؤدي إلى الساحل من البحر، ولذات السبب اختارها عبد الرحمن بن رستم ليبني عليها عاصمة ملكه "تاهرت"[1]، وإذ نحن نركز على الأهمية التي تكتسيها منطقة زناتة، ندرك مدى رغبة الفاطميين المستمرة في السيطرة عليها، وقد وجد الفاطميون في قبيلة كتامة ا اورة لمضار ا حليفا إستراتيجيا لتنفيذ خطتهم التوسعية[2].

وقد بدأت معالم عداء زناتة للفاطميين تتضح منذ أن كان أبو عبد الله الشيعي مقيما في "إيكجان"، وبخاصة حينما نجح الداعي في القضاء على الإمارة الأغلبية، فحدث أن أرسل أبو عبد الله بعضا من خيرة رجاله في مهمة عند صاحب الدعوة عبيد الله المهدي[3]، غير أن هذا الوفد تم تصفيته، عند عودته في منطقة الزاب على يد عناصر زناتية، بقيادة أمير مغراوة "محمد بن خزر بن صيلات الزناتي"[4]. ومن ذلك الحادثة أصبحت ملاحقة الزناتيين الشغل الشاغل للفاطميين، وأدركوا بعدها الخطورة التي تمثلها هذه القبيلة ضدتوسع نفوذهم ليس فقط في المغرب الأوسط، بل في المغرب الإسلامي ككل، وفي هذا الصدد، أورد "ابن عذاري"، غنه في سنة 298ه/910م: "تجول أبو عبد الله الشيعي في بلاد البربر، وحارب صدينة وزناتة وقتل الرجال، وأخذ الأموال، وسبي الذرية"[5]، وخرج في نفس السنة جيش فاطمي إلى قبيلة لواتة، فقتلوا أهلها، وغنموا أموالهم، و بت أموال أهالي مدينة تاهرت سنة بعد ذلك، بعد مذبحة قدر ا بعض المصادر ب "ثمانية آلاف قتيل"[6].

لم يتوقف الخطر الزناتي على السلطة الفاطمية عند حدود "تاهرت" فحسب، بل تحول إلى مدينة "نكور"[7]، والتي رفض سكا ا الاعتراف بسلطة الفاطميين، وتسليم مدينتهم،

---

(1) الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامي، ص103، موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ص88.

(2) حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، ج1، ص509، موسى لقبال، دور كتامة، ص343.

(3) القاضي النعمان، الافتتاح، ص222.

(4) نفسه، ص223، ابن عذاري، البيان،ج1 ،ص138، 139.

(5) ابن عذارى،نفس المصدر ، ص162.

(6) نفس المصدر،ونفس الصفحة.

(7) "نكور"، أنظر عنها : البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص765 ، المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحسيني، ص34.

وأمام هذا الوضع المضطرب، ارتأى الخليفة عبيد الله المهدي تعيين زعيم قبيلة مكناسة "مصالة بن حبوس" لفرض السيطرة على عناصر الشعب في المدينة، وتأديب زعيمها سعيد بن صالح[1]، ولا شك أن تكليف المهدي لهذه الشخصية البارزة للقيام ذه المهمة كان متعمدا، والغرض منه- فيما يبدو- إقحام هذه القبيلة في دائرة الصراع، عن طريق ضرب زناتة بمكناسة، وترك القبيلتين متناحرتين، والملاحظ أن هذه الإستراتيجية في إثارة النعرات القبلية من قبل السلطة، كثيرا ما تكررت، فكانت أسلوبا ناجحا تنتهجه في مثل هذه الظروف، وبخاصة كلما أحست بوجود ديد قد يضر بمصالحها في المنطقة.

ومن أجل أن تحافظ السلطة على ولاء قبيلة مكناسة، بادرت إلى مكافأة زعيمها مصالة بن حبوس، في مقابل الدور الذي قام به لكبح جماح الزناتيين، بأن جعلته على قيادة الجيش الفاطمي، بل ونصبته واليا على مدينة تاهرت والمغرب الأوسط[2]، كما منحت لأفراد أسرته امتيازات واسعة على المغرب الأقصى، فعقدت لأسرته على سائر المغرب وأمصاره، وكل ذلك اعترافا- كما سبق وأن أشرنا- هودات هذا القائد في إخضاع جزء هام منه لنفوذ الفاطميين[3]، ومن هنا نستنتج أنه، ذا الأسلوب الذي يقوم على تبادل المصالح المشتركة، أصبحت السلطة تتعامل مع قواد القبائل المتحالفين معها، وكأن هؤلاء أمراء، يقومون بإخضاع أجزاء ومناطق لسلطتها، وفي المقابل تمنح لهم امتيازات في تلك المناطق التي يخضعو ا، حتى أصبح السعي وراء المصالح والنفوذ، هدف كل قائد يطمح إلى السيادة والظهور.

كما لا يمكن تفسير تحول قبيلة "مغراوة" الزناتية من دور المعارض لسلطة الفاطميين، إلى مؤيد لهم؛ إلا بوجود مصلحة سياسية أو اقتصادية قد تجنيها من وراء هذا التأييد، فقد رأى زعيمها "محمد بن خزر" أن الوقت قد حان لإعلان ولائه للسلطة، والوقوف إلى جانب الخليفة المنصور بالله في حربه على أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي، على الرغم من أن كلا من قبيلتي "مغراوة"، و"بني يفرن" يجمعهما أصل واحد، والذي يتفرع عن القبيلة

[1] ابن عذاري،البيان،ج 1،ص 162.
[2] القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج5، ص182.
[3] نفس المصدر، ونفس الصفحة.

الكبرى "زناتة" هذا ما أشارته إليه بعض المصادر[1]، أما من جانب السلطة الفاطمية، فقد كانت ترى أن كسب ولاء "مغراوة" في تلك المرحلة الحرجة التي مرت ا الدولة أثناء ثورة صاحب الحمار، دعما سياسيا وعسكريا لابد من الحفاظ عليه ودعمه، ولكي تظهر عن حسن نواياها تجاه هذا التحالف، نجد أن الخليفة المنصور بالله يسارع إلى إسقاط الضرائب والقبالات التي كانت مفروضة على عاتق هذه القبيلة قبل ذلك الوقت، رغبة منه في تحسين أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية[2]، ألا يتضح بعد هذا، أن تبادل المصالح أصبح سمة بارزة في تعامل السلطة المركزية مع بعض القبائل المتحالفة معها، والتي كانت إلى وقت قريب، تمثل ديدا حقيقيا بالنسبة لها.

وفي ظل تنامي الخطر الزناتي، تزايدت مخاوف السلطة من اهتزاز مركزها السياسي فعمدت إلى على استمالة عصبيات جديدة إلى جانبها، مثل قبيلة "صنهاجة"[3]، وبحكم التنافس التقليدي بين الصنهاجيين والزناتيين[4]، فقد استغلت السلطة الفاطمية هذا الوضع، لتقيم تحالف مع الصنهاجيين، ويمكن تفسير هذا التحالف بين الطرفين، بالمقولة الشهيرة "عدو العدو صديق"، وبالتالي فقد رحب الخليفة المنصور بالله بمقدم زعيم قبيلة صنهاجة "زيري بن مناد"[5]، لنصرته في حربه على أبي يزيد الزناتي، ومما جاء في هذا الصدد: "ووصل إليه زيري بن مناد في عساكر صنهاجة، فوصله، وفضله، وخلع عليه ثيابا كثيرة من لباسه.. وأفاض عليهم، وعلى كافة صنهاجة الواصلين معه الأموال، إفاضة استسلم ا قلو م"[6].

أما "ابن خلدون" فقد ألمح إلى الوضع الحرج الذي آل إليه مركز الفاطميين في كل من القيروان والمهدية، نتيجة لضربات الزناتيين، أنصار أبي يزيد، فأورد: "ولما كانت فتنة أبي

---

[1]انظر: ابن خلدون، العبر، ج7، ص7 وما بعدها، و ايضا دائرة المعارف الإسلامية، لفظ "زناتة"، ج10، ص417.

[2]الداعي ادريس ، تاريخ الخلفاء الفاطميين ،ج 5،ص ،195، جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م)، ص453.

[3] تنتسب "صنهاجة" إلى ولد "صنهاج"، وأصل الكلمة "صناك"، بالصاد المشمسة زايا والكاف القريبة من الجيم، فلما عربتها العرب، زادت الهاء بين النون والألف، فصارت "صنهاج"، ثم أضافوا لها تاء الجمع، فتحولت إلى "صنهاجة"، للمزيد، ينظر، ابن خلدون، العبر، ج6، ص152.

[4] النويري، اية الأرب في فنون الأدب، ج24، ص159.

[5] الزركلي، الأعلام، ج3، ص63.

[6] ابن حماد، أخبار ملوك بن عبيد وسير م، ص29.

يزيد الثات أمر العبيديين بالقيروان والمهدية، كان لزيري منافرة إلى الخوارج أصحاب أبي يزيد وأعقا م، وشريف بالحشود لمناصرة العبيديين بالقيروان.."[1].

وإذا كان تحالف صنهاجة مع الفاطميين ضد قبيلة زناتة، قد سمح ببروز دور زيري بن مناد بمظهر القائد العظيم والمحنك، فإن بقاء هذا الأخير على ولائه للسلطة لفترة طويلة، قد أكسبه ثقة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، بأن ولاه على سائر المغرب الإسلامي، وذلك قبل رحيله إلى مصر[2].

ولا يفوتنا إلا أن ننوه في هذا المقام بدور العصبية في تأجيج الصراع بين قبائل المغرب الإسلامي، بدليل أن زيري بن مناد نفسه، قد مارس الغزو في بداية أمره، إذ اجتمعت إليه طائفة من عشيرته، فأغار م على من حوله من زناتة والبربر، ورزق الظفر م مرة بعد مرة، إلى أن عظم أمره، وتطلعت نفسه للإمارة، فقد أورد "النويري" في هذا الصدد: "فلما تكامل شبابه، وقوي أمره، جمع إليه جماعة من بني عمه، ومن كان له نجدة، فكان يشن م الغارات على القبائل من زناتة، فيقتل ويسبي، ويقسم على أصحابه"[3].

والملفت للانتباه أن الفاطميين كانوا يدركون تمام الإدراك، وزن كل قبيلة من قبائل المغرب الإسلامي، وتطلعا ا السياسية، لذلك يلاحظ أ م في كل مرة يسعون إلى الزج بزعماء القبائل في حروب فيما بينهم، حتى يتمكنوا من كسب الوقت، وإعادة ترتيب البيت الداخلي، حتى وإن اضطرهم الأمر إلى تقديم تنازلات لقبيلة دون أخرى.

والملاحظ أيضا أن أسلوب الدعاية المذهبية الذي اعتمده الفاطميون لجلب الأنصار، قد مكنهم إلى حد بعيد من بلوغ أهدافهم السياسية، هذا الأسلوب الذي أثبت نجاعته في التفاف القبائل حولهم، ولعل تلك الشعارات البراقة التي حاول الداعي أبو عبد الله الشيعي تمريرها بين قبائل كتامة بخاصة، قد لقيت تجاوبا كبيرا حتى بين المعارضين له، فتراه مثلا

---

[1] ابن خلدون،ا العبر ، ج 6،ص 3.

[2] المقريزي، الإتعاظ، ج1، ص100، أبي الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص112.

Charles. André. Julien. Histoire de l'Afrique du nord. p.p. 66.

Bel. (A)، La religion musulmane en bedrérié. Tome I. (L.P.G). 1938. p162.

[3] النويري، المصدر السابق ، ص 159 .

يناديهم بـ"الأخيار"[1]، وأحيانا أخرى "بالإخوان"[2]، وإن كان الغرض من هذه الشعارات الدعاية للمذهب الإسماعيلي، إلا أ ا ذات أبعاد اجتماعية، بدليل أ ا سرعان ما تحولت فيما بعد إلى سلوكيات وأخلاق تمارس، بين أفراد القبيلة الواحدة، بل وعمل كل فرد على إذاعتها في ا تمع، فقد أورد "القاضي النعمان" في هذا الصدد: "ورأي أهلوهم منهم من الإقبال على الصلاة والصيام، وأعمال الخير.. وتجنب المعاصي، وصلاح الأحوال، ما دعاهم إلى الدخول في ذلك.."[3].

وقد حرص عبيد الله المهدي، غداة مبايعته بالخلافة على إظهار مثل هذه الخصال، للدعاية للمذهب الإسماعيلي بين الناس، فجاء في بعض المصادر الإسماعيلية أنه: "أقام من الشريعة الغراء المعالم، وأمر بإقامة الحدود، وأظهر تحريم الخمر وسائر المحرمات.."[4]، ونستخلص من هذه الرواية، وما قبلها، أن الفاطميين، كان غرضهم من خلال إشاعة مثل هذه الفضائل الحميدة، والقيم الأخلاقية الدعاية لمشروع مذهبي اجتماعي يخرج عن حدود القبيلة الواحدة، وربما هذا ما عناه "ابن خلدون" حينما قال: "بأن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد، الذي في أهل العصبية، وتفرد الوجهة إلى الحق.."[5].

وقد سار الخلفاء الفاطميون على ج الداعي أبي عبد الله الشيعي في كسب ود كتامة، والإشارة بأفضالها على الدولة في كل مناسبة تدعو إلى ذلك، فمثلا حينما تمكن الخليفة المنصور بالله من التغلب على ثورة أبي يزيد الزناتي، توجه بخطاب حماسي يشيد فيه بخصال كتامة، قائلا لهم: "يا أهل دعوتنا، يا أنصار دولتنا، يا كتامة، احمدوا الله على ما خصكم به من نعمته، وجسيم منته، وفضلكم به على كافة الخلق.."[6].

ورغم المكانة الاجتماعية التي حظيت ا كتامة لدى السلطة، إلا أن هذه الأخيرة ظلت على حذر من ازدياد نفوذها؛ ففي عهد الخليفة عبيد الله المهدي أراد أبو عبد الله

---

(1) المقريزي، الاتعاظ ،ج 1،ص57.
(2) القاضي النعمان، الافتتاح، ص123.
(3) نفس المصدر، ص79.
(4) الداعي إدريس، تاريخ الخلفاءالفاطميين، ج 5،ص174.
(5) ابن خلدون، المقدمة، ص637.
(6) الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، ص59.

الشيعي، بمعية بعض رؤساء كتامة، أن ينقلب على سلطة المهدي، غير أن محاولته باءت بالفشل، وسرعان ما تفطن لها المهدي، فقام بتصفية كل العناصر التي حضرت لها[1].

أما عن خلفيات هذا الانقلاب، فهو لا يخلو من صراع طبقي، حيث نقم "الانقلابيون" على عبيد الله المهدي فكرة تقسيم الأموال والقصور بالتساوي بينهم والعبيد[2]، كما رفض أبو زاكي تمام بن معارك، وهو من بيت شريف أن يقدم عليه المهدي، غزوية بن يوسف الذي ينتمي إلى بيت كتامي وضيع، فقال محتجا على ذلك: "لا والله لا أكون في قطع أيام تقدمني فيها وارتفع علي ابن راعي البقر"[3].

وقد لجأت السلطة الفاطمية إلى طريق الإغراء وبالمال، لضرب منافسيها، أو لإرضاء بعضا ممن تفانوا في خدمة الدولة، وفي هذا الصدد ورد في بعض المصادر، أن المنصور بالله الفاطمي تقدم إلى محمد بن خزر المغراوي بعرض مالي، قيمته عشرين حملا من المال، نظير القبض على أبي يزيد مخلد بن كيداد[4]، كما وتقدم بعرض آخر لزيري بن مناد الصنهاجي لاستمالته، لاسيما بعد أن اشتد الخناق على الجيوش الفاطمية أثناء ثورة أبي يزيد الزناتي، وقد اشتمل العرض على أموال جمة، وذهب، وتحف..[5].

لم يكن الإغراء بالمال، الخيار الوحيد الذي راهنت عليه السلطة مع خصومها، بل وعن طريق الإغراء بالوظائف أيضا، ومنح الإقطاعات، ومثل ذلك ما قام به الخليفة القائم بأمر الله مع بعض الجماعات الزناتية التي والته، ومما جاء في هذا الصدد: "وهناك وافاه مصعب بن متى الزناتي، وجماعات كثيرة من زناتة، وأمر بإنزالهم، وأجرى الوظائف عليهم، وأمرهم أن يـ لوا حيث أحبوا من البلاد"[6]، وعلى الرغم من أن المصدر الذي أورد الرواية، لم يقدم تفاصيل أكثر حول دوافع التحاق هذه الجماعات الزناتية في صفوف القائم بأمر الله،

---

(1) القاضي النعمان، الافتتاح، ص316، المقريزي، الاتعاظ، ج1، ص68، ابن عذاري، البيان، ج1، ص163.

(2) القاضي النعمان، نفس المصدر، ص317.

(3) نفس المصدر، نفس الصفحة، للاستزادة أنظر: بوبة مجاني، النظم الإدارية في بلاد المغرب خلال العهد الفاطمي- رسالة دكتوراه- إشراف: محمود إسماعيل عبد الرزاق، ص301.

(4) ابن خلدون، العبر، ج7، ص15.

(5) ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسير م، ص27.

(6) الداعي إدريس، المصدر السابق، ص217.

واكتفى فقط بالإشارة، إلى ا ا وافته عند حائط حمزة[1]، ويبدو للوهلة الأولى أن هذه الجماعات النازحة كانت تنتمي إلى أهالي مدينة "حمزة" التي يغلب على سكا ا "العنصر العربي"، الذي استوطنها منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، وبقيت المدينة تترد في أعقابه[2]، ونستنتج من خلال هذه المقاربة أن صراعا حادا يكون قد حدث بين هؤلاء العرب وبربر زناتة حول السيادة على المدينة المذكورة، فأفضى الأمر ذه الجماعات الزناتية إلى الا وح عنها، وبالتالي الارتماء بين أحضان الفاطميين طمعا في حمايتهم، أو الحصول على مكاسب سياسية!.

ومما سبق، نستخلص أن الفاطميين نجحوا إلى حد بعيد في توطيد سلطا م ببلاد المغرب الإسلامي، عن طريق خلق تكتلات سياسية في إطار القبيلة، والتي تحميها المصالح المشتركة مادية كانت أم معنوية، ولذا فإن الحديث عن تحقيق عدالة اجتماعية تتساوى فيها جميع الفئات الاجتماعية، والأطياف السياسية، تصبح مسألة جزئية، أو هي بالأحرى مصالح قبيلة على حساب أخرى، تطبيقا للنظرية السياسية المعروفة "فرق تسد".

---

(1) الداعي إدريس، المصدر السابق،ص217.

(2) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص730، أما"حمزة" والتي تسمى الآن بـ "البويرة"، مدينة تنسب إلى مؤسسها "حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن أبي طالب"، ملك هاز من أرض المغرب الإسلامي، أنظر عنها: حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، ج1، ص221،و لقبال موسى، "طبنة"مدينة الزاب والأوراس في العصور الوسطى- مقال- مجلة الأصالة، ع: 61/60، تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1978، ص96.

• السلطـة والعلمـاء:

بظهور الدعوة الإسماعيلية في بلاد المغرب الإسلامي، كان مذهب أهل السنة، وبخاصة المذهب المالكي[1] يمثل مذهب أغلبية السكان، والذي يرجع الفضل الكبير في انتشاره بينهم إلى طبقة من العلماء والفقهاء، من أمثال أسد بن الفرات[2]، وسحنون بن سعيد التنوخي، وما قام به هذا الفقيه من دور سياسي واجتماعي لترسيخ مبادئ المذهب في نفوس الرعية، وكان ذلك على أيام الأغالبة بالقيروان[3]، وبوفاة سحنون خلفه جيل ثان من أهل السنة شهد سقوط الإمارة الأغلبية، وقيام خلافة الفاطميين، وقد عمل هؤلاء على تسويد النحلة الإسماعيلية في البلاد، لذا كان من الطبيعي أن تتفاعل مواقف هذا الجيل والسلطة الجديدة تفاعلا، تجلت آثاره على حياة السكان.

ويبدو أن الخلاف كان على أشده بين علماء السنة والشيعة الإسماعيلية حول بعض المسائل الشرعية، التي ارتبطت أساسا بفهم النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، الأمر الذي لم يدع مجالا للمقاربة بين الفريقين، حسب إشارة بعض المصادر[4]، وخاصة وأن للشيعة تأويلات اختصوا ا، ويرفضون كل ما روى عن غيرهم من المذاهب[5]، ويبدو أ م أفصحوا عن توجههم المخالف لأهل السنة غداة الإعلان عن قيام الدولة برقادة[6]. وبرغم التأييد الذي حظيت به السلطة الفاطمية من بعض الفقهاء، والأنصار ومن كانت لديهم مصلحة في دعمها[7]، فقد ظل السواء الأعظم من أهل السنة معارضا لسياستها المذهبية

---

[1] نسبة إلى مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث، ولد سنة 95هـ/713م، وكانت وفاته بين سنتي 178هـ/794م، أو 179هـ/795م، ابن النديم، الفهرست، ص247، أبي الفدا، المختصر، ج2، ص14.

[2] هومولى بني سليم، واصله من خراسان، سمع عن مالك موطأه، وولاه زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب على الجيش الذي أرسله سنة 212هـ/827م لفتح صقلية، وتوفي ولم يستكمل فتحها سنة 214هـ/829م، أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، ص163، الزركلي، الأعلام، ج1، ص298.

[3] ابن عذارى، البيان، ج1، ص109.

[4] انظر تعليق؛ عبد العزيز ا دوب، الصراع المذهبي بإفريقية، ص167.

[5] مصطفى غالب، أعلام الإسماعيلية،ص15 ،عبد ا يد بن حمدة،المدارس الكلامية بافريقية إلى ظهور الاشعرية ، ص182 .

[6] القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك، ج1، ص26.

[7] نفس المصدر ، نفس الصفحة.

والاجتماعية،إذ سرعان ما أخذت المعارضة بعد ذلك أشكالا من المواجهة كان لها الأثر العميق في حياة ا تمع.

لقد ظلت مفاهيم مثل "المعارضة" أو "المعارضين" في نظر الفاطميين مرادفات ذات دلالات حقيرة، إذ تردد ذلك في العديد من المناسبات وفي خطابات الخلفاء أنفسهم، والتي كانت حسبهم لا ترقى إلى المستوى الاجتماعي اللائق، ومثل ذلك ما جاء في خطبة القائم بأمر الله، التي نعى فيها والده عبيد الله المهدي، حيث وصف من عارضوه وحملوا السلاح ضده بأ م "أرجاس، أنجاس، أولى الذل.. أشقياء، أخزياء، ملعونين في الأرض والسماء.."[(1)]، كما وصفهم عبيد الله المهدي قبل ذلك ب "السفهاء" تارة، وب "الغوغاء"[(2)] تارة أخرى، وإذا كان السفيه هو من لا يحسن التصرف في أموره كلها، فإن مدلول "الغوغاء" يقترب من معنى "صغار الجراد" [(3)]، أو ما شابه ذلك من أوصاف، والتي كانت تعبر في مجملها عن احتقار شديد لكل معارض لسلطة الفاطميين، وهذا ما يبرر في رأينا حرص الفاطميين على وأد كل رموز المعارضة، سواء تمثلوا في حركات سياسية ثورية، أو قاد ا زعامات مذهبية مناهضة لسلطتهم.

وقد حاول الفاطميون بكل الوسائل القضاء على مذهب أهل السنة، وإحلال النحلة الشيعية الإسماعيلية محله، لذلك قاسى علماء القيروان أكثر من غيرهم كل أشكال التعذيب والتنكيل من طرف السلطة الفاطمية، لكنهم لم يتنحواعن أداء دورهم التربوي والاجتماعي تجاه طلا م، حتى أ م اضطروا في كثير من الأحيان إلى تدريسهم، والاجتماع م سرا، وبعيدا عن أعين السلطان الفاطمي، فقد كان الفقيه أبو بكر محمد بن وشاح، المعروف ب "ابن اللباد"، يجتمع بطلابه خفية، وكانوا ربما يجعلون الكتب في أوساطهم وحجورهم حتى تبتل بعرقهم، خوفا على أنفسهم من بني عبيد أن ينالوهم بمكروه[(4)].

---

(1) الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، ص57.

(2) القاضي النعمان، الافتتاح، ص273.

(3) انظر؛ بن عبد ربه، العقد الفريد، ج6، ص294.

(4) المالكي، رياض النفوس في علماء القيروان وإفريقية وتونس، ج2، ص29.

وقد تعرضت بعض المصادر بالتلميح إلى الوضعية المزرية التي آل إليها علماء السنة في سبيل تبليغ رسالتهم التعليمية والتربوية في ا تمع بالقول: ".. كان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد في حالة شديدة من الاهتضام، والتستر، كأ م ذمة، تجري عليهم في كثرة الأيام محن شديدة.."[1].

ولم يكتف الخليفة عبيد الله المهدي بملاحقة العلماء والتضييق عليهم، بل أقدم على إصدار أوامر لقضاته بإنزال أشد أنواع العقوبات، قد تصل إلى السجن، في حق كل من يتعرض بالطعن في سلطته، أو يقوم بالتحريض عليها؛ "فقد تعرض الفقيه محمد بن العباس الهذلي للضرب بالذرة، بعد أن شهد عليه قوم من المشارقة، بأنه يطعن على السلطان، ويفتي بقول مالك"[2]، كما لقي أبو جعفر المعافري نفس المصير إلى أن مات[3].

وقد أحصى صاحب كتاب "المحن"[4] قائمة بأسماء العلماء الذين حبسوا أو نكل م، على يد القاضيين الشيعيين المروزي، وأيضا إسحاق بن أبي المنهال، وهم : موسى بن عبد الرحمن القطان ، محمد بن خالد الطيوري ، إسحاق بن إبراهيم ابن بطريقة ، احمد بن نصر الفقية ، أبو بكر بن اللبانة ، محمد بن محمد ، واحمد بن زياد .

---

(1) القاضي عياض، المصدر السابق، ص29.

(2) ابن عذارى، البيان ج1، ص188.

(3) الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج2، ص197.

(4) أبو العرب، ص467، وما بعدها، محمد النيفر، من عيون الأريب عمن نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب، ج1، ص28.

والظاهر إن سياسة الترهيب والتنكيل التي مارسها السلطة على العلماء لم تمنع الفقيه السدري "من مواجهة الخليفة عبيد الله المهدي ، وانتقاد سياسته الاجتماعية ، والتي حسبه عملت على تأزيم الوضع في البلاد ، وتحميله المسؤولية كاملة في اظهار شرب الخمر ، والعمل بنظام " القبالات "[1]، الذي اضر بالمستوى الاقتصادي ، والاجتماعي للفلاحين وملاك الأراضي والمزارعين ، وأيضا وضعه للمراصد"[2] (2).ولم يكتف هذا الفقيه بانتقاد سياسة السلطة ، بل قاد حملة تحريض واسعة في أوساط قبيلة وزداجة ، وقبائل أهل إفريقية ، وأكثر أهل القيروان ، على جهاد الشيعة ، وكان ذلك سبب قتله"[3].

ويبدوا أن مسار الأحداث السياسية على عهد الفاطميين ، وما ترتب عنها من نتائج ، كان لها الأثر السيئ في نفوس علماء أهل السنة ، الذين فضلوا حياة الزهد والعبادة ، والابتعاد ما أمكن عن القرب من السلطان ، فقد اثر عن أبي عثمان ، المعروف " بابن الحداد "، انه كان لا يدخل على السلاطين ، ولا يسير إليهم حتى يوجهوا إليه ، وكان يقول :" القرب من السلاطين في غير هذا الوقت حتف من الحتوف ، فكيف به في هذا الوقت....."[4]، وحينما أراد الخليفة المنصور بالله تولية الفقيه ميسرة منصب قضاء القيروان ، وكان قبل ذلك قاضيا ، تظاهر هذا الأخير بالقول : " كيف يلي القضاء رجل أعمى يبول تحته "[5] .

---

[1] القبلات، جمع مفردها "قبالة "،هي لغة الكفالة ، واصطلاحا لها مدلولان :الأول ؛لالتزام ،والثاني ؛الإجارة ،كأن يتكفل شخص بزراعة ارض أو غراستها مقابل أجرة مسماة ، أما إذا كانت القبالة بمعنى الالتزام مقابل مبلغ معين يدفع إلى بيت المال ، فمعظم الفقهاء ينهون عن الالتزام ، انظر : محمد محمد مرعي ، النظم المالية والاقتصادية في الدولة الإسلامية على ضوء كتاب الخراج لأبي يوسف ، ص155 .

[2] المالكي،رياض النفوس .ص173 .

[3] نفس المصدر ، ص 171 .

[4] الدباغ ، المصدر السابق ، ص210 .

[5] المالكي ، نفسه، ص362

ويمكن القول بأن موقف علماء أهل السنة من الحكم أو الانخراط في السلطة بدا متأثرا إلى حد بعيد بالمواقف التي اشتهر ا شيخهم، ومؤسس مدرسة المالكية بالمغرب الإسلامي، وهو سحنون، وهذا ما يفسر فتور العلاقة بين العلماء والسلطة الفاطمية، وهو الأمر ذاته الذي أدى إلى انضمام الكثير من علماء أهل السنة والمالكية إلى ثورة الخوارج، بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي، أوربما لأ م اعتقدوا أن هذا الثائرالأمل الوحيد بالنسب لهم للخلاص من حكم الفاطميين، طالما أن الخوارج- حسبهم- من أصحاب القبلة لا يزول عنهم الإسلام، بينما الفاطميون مجوس قد زال عنهم اسم الإسلام.

وقد كان الفقيه ربيع القطان- وهو من جملة المالكية الذين أجازوا نصرة الخوارج ضد الشيعة، حيث كان يقول لأصحابه: "أنا أول من يشرع في هذا الأمر، ويخرج فيه، ويندب الناس إليه، ويحظهم عليه"، وقد اتخذ الفقهاء من الأسواق مكانا لاستنفار العامة، وحملهم على جهاد الشيعة"[1]، كما انضوت تحت لواء هذه الثورة بعض الفئات الاجتماعية، والتي ربما تكون قد تضررت من سياسة الحكم الفاطمي، بما في ذلك فئة التجار[2]، مما أعطى للثورة بعدا اجتماعيا واقتصاديا، زيادة على البعدين الديني والسياسي.

وإن كانت هذه الثورة في النهاية قد فشلت من الناحية العسكرية في تقويض سلطة الفاطميين، إلا أ ا أجبرت الخليفة الثالث المنصور بالله على إعادة النظر في سياستة في للبلاد، ومن ذلك أنه قام بإحداث إصلاحات شملت جوانب اجتماعية واقتصادية لفائدة الرعية، فأسقط العمل بنظام "القبالات"، نظرا لأنه تسبب في تدهور الأحوال الاقتصادية للرعية[3]، بالإضافة إلى ذلك تقديم إعانات مالية لصالح الفقراء والمساكين في المهدية[4]، وكذلك فعل

---

(1) ابن عذاري، البيان، ج1، ص217.

Bel (A): La religion musulmane en berbérié، p.160.

(2) المالكي، المصدر السابق، ص341.

(3) الداعي إدريس القرشي، تاريخ الخلفاء الفاطميين ، ج 5، ص195.

(4) الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، ص51.

مع أهالي القيروان[1]. ومن جهة أخرى فإنه عرض الأمان على من أشهروا السلاح ضده، وتعهد بعدم التعرض لمذاهبهم[2].

وكخطوة عملية منه لإرضاء أهل السنة والمالكية عموما، عمل على تعيين أحمد بن محمد بن أبي الوليد على المظالم[3]، وجعل على قضاء القيروان أبا عبد الله محمد بن أبي المنظور[4].

ويبدو أن هذه الإجراءات التي اتخذها الخليفة المنصور بالله، والتي شملت إصلاحات في جميع ا الات، لقيت ترحيبا واستحسانا بين علماء أهل السنة والمالكية بخاصة، وفي هذا الصدد يقول الدباغ[5]: "لم يزل هذا شأنه في حفظ المسلمين، وتولية أهل الورع في الدين، ومحبة الفقهاء، والصالحين".

وقد بلغ القاضي المالكي المذهب محمد بن أبي المنظور من السلطة والنفوذ في إمضاء الأحكام الشرعية، أن قام بسجن جارية الخليفة المنصور بتهمة الفسق، ومخالطة السفاء[6]، دون أن يلقى اعتراضا من الخليفة نفسه، كما أفصح الفقيه أبو علي الحسن بن نصر السوسي عن موقفه بصراحة من تصرف الأمير طاهر- وهو ابن عم الخليفة المنصور- الذي جلب معه المسكرات والملاهي إلى رباط سوسة، حيث أرسل إلى هذا الأمير من يبلغه قائلا: "أتيت بالمنكرات إلى رباط المسلمين وتغرمن ثغورهم، أخرج عنا، وإلا جاهدناك حتى تخرج.."[7].
تخرج.."[7].

---

(1) ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسير م، ص47.
(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص171.
(3) المقريزي، الاتعاظ، ج1، ص91.
(4) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 2،ص339.
(5) المعالم، ج2، ص26.
(6) المالكي، رياض النفوس، ج2، ص360.
(7) المالكي، المصدر السابق، ص40.

وإذا كان القاضي بن أبي المنظور، والفقيه أبو الحسن بن نصر السوسي قد عملا على تغيير بعض مظاهر الفساد و الآفات الاجتماعية التي ما فتئت تنتشر بين حاشية السلطان الفاطمي، فإ ما- بلا شك- كانا يدركان مدى تأثيرها على ا تمع.

كما أن هناك من العلماء من كان على اتصال بالسلطة تقية[1]، وسعيا وراء مصالح المسلمين، مثل ما هو الشأن بالنسبة لأبي عثمان بن محمد الخولاني[2]، فقد كان يأتي الفاطميين في مناسبات الأفراح، والأحزان، مداراة للقوم على المنستير، وأهله، ليكف أذاهم، وليبقى عليها الحال الجميل والهيبة، ولا يكون كسائر الحصون التي أخلوها وأفسدوها، على حد تعبير المالكي[3].

أما البعض الآخر من العلماء فقد آثر حياة العزلة، والابتعاد عن الاختلاط، برجال الدولة، خوفا من أذاهم وبطشهم، وفي هذا الصدد ورد في بعض المصادر في ترجمة أبي محمد يونس بن محمد الورداني، أنه: "لما دخل عبيد الله إفريقية استولى عليها، طلب أهل الفضل والديه، فخاف على نفسه، فقال لأهله: أخيركم بين أحد وجهين، إما أن تتركوني أهرب لا تروني أبدا، وإما أن تتركوني أرعى البقر، قالوا: فأقبل على رعاية البقر.."[4]، ومن هنا قررت هذه الشخصية العلمية التخلي عن دورها التعليمي والاجتماعي هروبا من الواقع المر.

لقد حاول علماء أهل السنة والمالكية، الأخذ بكل الخيارات الممكنة في تعاملهم مع الشيعة، ومن ذلك أن البعض منهم عقدوا مناظرات مع الفاطميين وعلمائهم ورجال دولتهم منذ دخول هؤلاء إلى القيروان، وما ورد في كتب الطبقات والتراجم عن تلك ا الس، التي كانت تعقد للمناظرة، وما عالجته من قضايا مختلفة وأساليب الحوار والجدل، تكشف عن

---

(1) "التقية" أو "المداراة"، ومعناها أن يحافظ المرء على نفسه أو عرضه أو ماله، بالتظاهر أو عمل مالا يعتقد بصحته، فمن كان على دين أو مذهب، لم يستطع إظهاره، تظاهر بغيره "تقية"،انظر سميح نعيم، موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، ج1، ص349-350، أحمد أمين، فجر الإسلام، ج1، ص321.

(2) من سكان المنستير، كان عظيم القدر، شهير الذكر أدرك سحنون ولم يأخذ عنه، وكان شيخ العصر، يجتمع إليه للحراسة في رباط المنستير أحيانا حوالي الأربعة آلاف، حتى خافه الشيعة، محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ص82.

(3) رياض النفوس، ج2، ص260.

(4) المالكي، المصدر السابق، ص45.

دور علماء السنة عامة، والمالكية بخاصة في الدفاع عن مذهب أهل السنة، وحرصهم الشديد على تطهيره من الشوائب والبدع.

وقد ارتكزت تلك المناظرات حول مسائل شرعية أبرزت الخلاف القائم بين الطرفين، لعل أهمها، "مسألة تفضيل علي بن أبي طالب"، و"صلاة التراويح" و"القياس" و"حد شارب الخمر"، و"فضل العالم على المتعلم"، بالإضافة إلى مسائل فقهية أخرى تتعلق بما يصطلح عليه اليوم بـ "قوانين الأحوال الشخصية" في قانون الأسرة، مثل مسألة "الزواج، و"الطلاق" وأيضا "ميراث البنات"[(1)]، والتي ترتبط في مجملها بتنظيم ا تمع، وهي من هذا الجانب على قدر من الأهمية، لاسيما وأن الشيعة الإسماعيلية أرادوا تكييفها، وصياغتها من جديد، بما يتوافق ومذهبهم، والذي يتعارض والمذهب السني!، ففي مسألة "الزواج"، فقد شدد الفاطميون على مبدأ التزام الرجل بزوجة واحدة، وإن كانوا لم يصوغوا في ذلك حكما صريحا، واعتبروا أن تعدد الزوجات بالنسبة للرجل يعد "شراهة"[(2)].

أما مسألة "الطلاق"، فقد أقروا "بسقوط الحنث عمن طلق البتة[(3)]، وفي مسألة "توريث البنات" أو "إحاطة البنات بالميراث"، فقد عللها بعضهم، بأن الشيعة الإسماعيلية يرون تقديم القرابة على العصبية في الميراث، ومثل ذلك أنه إذا توفي رجل عن بنت وابن ابن، فنصف ميراثه للبنت، ونصفه الآخر لابن الابن عند أهل السنة، أما بالنسبة للشيعة فإ م يورثون البنت فقط بكل المال، ويحرمون منه ابن الابن، حسب زعمه"[(4)].

ومن خلال نظرة فاحصة حول هذه المسائل الثلاث المطروحة للجيل، نلمس بوضوح، العناية الفائقة التي أولاها الشيعة الفاطميون للمرأة، بحيث تكون محفوظة الكرامة وحقها مصون في ا تمع، وفي كل مراحل حيا ا.

---

(1) انظر:ان عذاري، البيان، ج1، ص160.

(2) لقد وردت هذه الكلمة في خطاب المعز لدين الله الذي وجهه لشيوخ كتامة، حيث قال لهم فيسه: "واقبلوا بعدها على نسائكم، والزموا الواحدة التي تكون لكم، ولا تشرهوا في التكثير منهن، والرغبة فيهن.."، انظر، المقريزي، الاتعاظ، ج1، ص96.

(3) ابن عذاري،نفس المصدر،ونفس الصفحة.

(4)انظر عبد العزيز ا دوب، الصراع المذهبي بإفريقية، ص179.

ولعل بعض الباحثين قد بالغ في الحكم على الشيعة الإسماعيلية حينما ذهب بالقول بأ م؛"يجيزون نكاح المتعة"[1]، - ولا شك- أن مثل هذا الحكم يحتاج إلى استقراء وإثبات، لاسيما إذا علمنا أن المعز لدين الله قد فصل في هذا الزواج، حين أجاب من سأله عن حكم الشرع فيه، حيث قال له: "ما لم تكن تفعله لنفسك، فلا تلزمه لغيرك.."[2]، ويبدو أن المغزى من هذا الرد صريح بعدم جوازه، لأن المرء لا يرضاه لأهله، فكيف يرضاه لغيره.

غير أن ما يمكن استخلاصه أن كلا من الطرفين السني والإسماعيلي يكون قد استفاد من حلقات المناظرة، كما أفادوا جمهور السكان في إفريقية أو القيروان وغيرهما، بفضل الوعي الذي انتشر بينهم، حتى أن تلك المناظرات كانت تجري في رفادة أو في القيروان أو في المهدية، سرعان ما تنتشر أخبارها، وتتردد تفاصيلها على الألسن، في كل أرجاء إفريقية[3].. بل في المغرب الإسلامي ككل.

وقصارى القول، فبرغم تباين مواقف علماء أهل السنة والمالكية من السلطة الفاطمية، إلا أ م كانوا لسان حال الرعية في كثير من القضايا التي تعلقت بأوضاعهم الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية، كما أ م حملوا لواء الدفاع عن المذهب السني ضد محاولات التشويه التي سعى إليها الفاطميون الشيعة.

---

(1) نفس المرجع،ص180.

(2) القاضي النعمان، ا الس والمسايرات، ص65.

(3) الخشني، الطبقات، ص257، أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج1، ص299.

(3)انظر: الخشني ، الطبقات ، ص 257 ، احمد أمين ، ظهر الإسلام ، ج1 ، ص299 .

• السلطـة والعبيـد:

لم يحظ "العبيد" في أي دولة من الدول بمثل ما حظوا به في ظل حكم الفاطميين لبلاد المغرب الإسلامي، وبحسب إشارات كثير من المصادر، نلاحظ بموضوع توزع أدوار هذه الفئة داخل الدولة، على نحو يوحي بأ ا أصبحت طبقة اجتماعية لا يستهان ا؛ حيث تمكن بعض أفرادها من اقتحام مناصب عليا في السلطة، سواء في الإدارة أو الجيش، كما احتلوا مراتب حيوية نافسوا فيها عناصر كتامية، كان لها فضل كبير في تأسيس الدولة، لذا كان من الأجدر معرفة العلاقة الموجودة بين السلطة وهذه الفئة، ومدى تدخل هذه الأخيرة في إحداث نوع من الصراع الطبقي داخل ا تمع.

لقد تم استقدام عناصر من العبيد السود والروم من قبل الفاطميين لاستخدامهم في القصور، أو كحراس لمرافقة مواكب الخلفاء والأمراء في تنقلا م وخراجا م الميدانية، فقد اتخذ الخليفة عبيد الله المهدي لحراسته "اثني عشر ألف مملوك، ما بين رومي وحبشي"[(1)]، ومما لا شك فيه أن هذا العدد هائل- إن دل إنما يدل على اتجاه الخليفة الفاطمي في إحاطة نفسه أمام الخاصة والرعية الة من الهيبة والقداسة.

لقد بدا اعتماد السلطة الفاطمية- منذ وقف مبكر- على عنصر "العبيد" لتسيير شؤون الدولة العامة، ومختلف المرافق الأخرى، حيث أسندت لهم وظائف هامة، مكنتهم بمرور الزمن، من الارتقاء التدريجي في السلم الاجتماعي، وبالتالي أصبح تأثير هؤلاء واضحا في تحريك عجلة الحكم.

وبالاستناد إلى ما أوردته بعض المصادر الإسماعيلية، نجد أن شخصية مثل "جوذر" كان دورها من الأهمية بمكان، إذ مثلت السلطة السياسية الثالثة بعد سلطة الخليفة وولي عهده، وهذا معناه، أن جوذرا قد بلغ أرقى مرتبة في السلطة، وهي نفس الم لة التي تكون للوزراء، حين يتخذ الخلفاء وزراءهم، حتى لقب بـ "مولى أمير المؤمنين" وكان ذلك على عهد الخليفة المنصور بالله، فكانت التوقيعات المكاتبات التي يرسلها الخليفة إلى الأطراف والأقاليم، لابد

---

(1) أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان في ا خبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج1، ص156.

وأن تمر عن طريق جوذر وتحت إشرافه، ويذكر الجوذري[1] ذا الصدد: ".. فأجعل مكاتبتك لمن كبر قدره أو صغر من جميع الناس، من جوذر- مولى أمير المؤمنين- إلى فلان ابن فلان، ولا تكني أحدا، ولا تقدم على اسمك اسما إلا اليم مولاك أبي تميم".

إن هذه المكانة التي بلغها جوذر الصقلي[2]، وانفرد ا أشبه ما تكون بم لة "أمير السر"، أو "المستشار" لدى رؤساء الدول في الأنظمة السياسية الحديثة.

وألف العبيد على اختلاف أجناسهم وأصولهم، روم سودان، وصقالبة، أبرز العناصر ضمن الجيش النظامي الفاطمي، وذلك منذ الإعلان عن قيام الخلافة برقادة سنة 296هـ/908م، إلى المرحلة التي انتقل فيها الفاطميون من أرض المغرب الإسلامي متوجهين إلى مصر من سنة 361هـ/971م[3].

وقد امتاز العبيد داخل الجيش الفاطمي، بصبرهم الشديد على تحمل القتال، والثبات فيه، وبأسلوب يختلف عنه عند أهل المغرب الإسلامي عموما[4]، وبفضل هذه الخاصية العسكرية، كانوا محل رضا الخلفاء، ومن ثم اعتمدوا عليهم في أحلك الظروف التي واجهوها في الداخل والخارج.

ورغم أن الفاطميين لم يكونوا أصحاب السبق في الاعتماد على أفراد العبيد في الجيش، إذ جرت عادة اتخاذ العبيد في الخدمة، معمول ا عند أغلب الدويلات الإسلامية قبلهم، على غرار، بنو مدرار، والرستميون، والأغالبة[5] غير أن العبيد في دولة الفاطميين تمكنوا من بلوغ مناصب خطيرة في الدولة وفي كل ا الات السياسية منها والإدارية أو العسكرية.

---

[1] سيرة الأستاذ جوذر، ص52.

[2] * نسبه يرجع إلى الصقالبة، وهم شعوب منحدرة من أصول شتى، والتي كانت ت ل الأراضي ا اورة لبلاد الخزر، بين القسطنطينية، وأرض البلغار، للمزيد أنظر، أبي يوسف بن عبد البر، القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم، ص35، ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص14، موجز دائرة المعارف الإسلامية،(لفظ الصقالبة)، ج21، ص6549، وما بعدها.

[3] المقريزي، الاتعاظ، ج1، ص100، أبي الفدا، المختصر، ج2، ص112.

[4] أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج1، ص130.

[5] الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامي، ص30.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن طبيعة الحكم الفاطمي المطلق، الذي يقوم على أساس أن "الإمام" أو "الخليفة"، هو صاحب السلطة الروحية والفعلية، يعتبر أن الولاء غير مشروط بالحرية؛ أي أن "العبد" قد يتساوى و"الحر" في الولاية وسائر الحقوق، وقد جاء التلميح إلى هذا الحكم على لسان الخلفاء أنفسهم بشكل مباشر أو غير مباشر، وفي أكثر من مناسبة[1].

وبناءا على ما تقدم وجد "العبيد" ا ال أمامهم مفتوحا للتغلغل داخل السلطة، والتنافس على مناصبها، أمام عصبيات كتامية وصنهاجية. ولعل الحروب التي خاضها الفاطميون ضد خصومهم خاصة في المغرب الإسلامي ومصر، أو ضد الروم، قد تركت انطباعا حسنا لديهم، للوثوق أكثر في قدرات العبيد هذا من جهة، ومن جهة أخرى سعوا إلى استغلال ولائهم ليكونوا سدا لمواجهة التحديات التي تحول دون تثبيت سلطا م، أو تنتقد سياستهم، بدليل فشل مساعي زعيم قبيلة "ملوسة"[2] "غزوية بن يوسف"[3]، في الانتفاض ضد سلطة الخليفة عبيد الله المهدي، الذي استعان عليه بجيش، جعل على رأسه قائدا من مواليه المخلصين، وقد نتج عن هذه المحاولة الانقلابية ثورة عارمة بين كتامة والبربر، ومن الناقمين على نظام الحكم[4].

وفي كل مرة كانت السلطة الفاطمية تسعى جاهدة لاستمالة هؤلاء العبيد إلى جانبها عن طريق الإغداق عليهم بالأموال الطائلة والأعطيات الجزيلة، أثناء أو بعد كل عملية عسكرية يخوضو ا، رفعا لمعنويا م، وكسبا لولائهم[5].

وقد أظهرت بعض عناصر هذه الطبقة مقدرات قتالية فائقة في العديد من المواجهات العسكرية، فقد حدث أن تراجع مركز السلطة الفاطمية على عهد الخليفة الفاطمي القائم

---

(1) الجوذري، المصدر السابق ص44، ، انظر القاضي النعمان ، ا الس والمسيرات، ص394 .

(2) * انظر أو "ملوزة"، وهي من القبائل الكتامية، كان لها فضل كبير في تأسيس الدولة الفاطمية، وبرز منها زعماء في الدعوة والجيش، عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، ج1، ص319.

(3) وقد كان أقرب الشخصيات إلى أبي عبد الله الشيعي، وبرز دوره أكثر على عهد عبيد الله المهدي، هذا الأخير الذي استعان به لكشف المؤامرة التي دبرها أبو عبد الله الشيعي ضده، القاضي النعمان، الافتتاح، ص316، المقريزي، الاتعاظ، ج1، ص67، 68.

(4) * المقريزي، المصدر السابق ، ص69.

(5) انظر؛القاضي النعمان،ا الس والمسايرات ، ص531.

بأمر الله في كل من باجة والقيروان وسوسة، ومدن أخرى من المغرب الإسلامي بسبب ضراوة ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي، فلجأ القائم بأمر الله إلى الاستعانة بخبرة قائديه الصقلبيين "ميسور"[1] و"بشرى"[2]، اللذان تمكنا من دحر الجيوش الزناتية الثائرة في أكثر من معركة، وتمكنا من استعادة بعض المدن إلى قبضة الفاطميين[3].

ولا شك أن القائم بأمر الله لم يعد متحمسا لفكرة الاعتماد على رجالات كتامة حلفاء الدولة التقليديين، خاصة بعد إدراكه أن بعض رؤسائهم البارزين، قد دبروا للإطاحة بعرش والده عبيد الله المهدي، وهو ما جعله يتحول عنهم إلى "العبيد" فهم أبعد ما يكونون عن روح العصبية، ولا يخشى جانبهم.

ولقد أدى الطموح المتزايد لبعض الصقالبة مثل "قيصر" و"مظفر" إلى استغلال هذه الأوضاع المضطربة، لينفردا بالحكم والنفوذ في المناطق التي أسندت إليهما، حتى كادا يغلبان على دولة المنصور بالله، لكن سرعان ما تفطن المعز لخطرهما، فقبض عليهما، وقتلهما سنة 349هـ/960م[4].

وقد استمر نفوذ العبيد يمتد في الدولة، وبخاصة الصقالبة منهم، إذ نجد أن أغلب الولايات الهامة على عهد الخليفة المعز لدين الله، كانت تحت إدار م المباشرة، مثل "باغاية"، و"سرت"، و"برقة"، بما في ذلك ولاية المغرب[5]، والملاحظ أن هذه الولايات على وجه التحديد، شكلت بؤر توتر متواصل بالنسبة للسلطة الفاطمية.

ولم يقتصر نفوذ الصقالبة على إدارة الولايات، وقيادة الجيوش فحسب، بل ارتقى البعض منهم إلى تولي منصب "الكتابة"، علما أن هذه الوظيفة كان لا يتولاها إلا من توفرت فيه شروط معينة، كأن يكون صاحبها من أرفع طبقات ا تمع، ومن أهل المروءة والحشمة،

---

(1) هو أحد موالي عبيد الله المهدي، وقائد جيشه المظفر، وقد اكتسب خبرة عسكرية فذة من حربه ضد موسى بن أبي العافية، عامل فاس والمغرب، ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص209.

(2) لقد ابتدأ هذا الصقلبي كخادم في قصر المهدي، ليرتقي بعد ذلك إلى قائد من أعظم القواد في الجيش الفاطمي على عهد القائم والمنصور، الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، من عيون الأخبارج5 ص161 ، اليماني، سيرة الحاجب جعفر، ص130.

(3) المقريزي، نفس المصدر ، ص76.

(4) المقريزي ،الا تعاظ ،ج1 ص101، القاضي النعمان، ا الس والمسايرات ، ص487.

(5) ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص61.

وبالإضافة إلى ذلك أن يكون على قدر كاف من العلم والبلاغة، وما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام بالآداب، والتخلق بالفضائل، وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها، حسب ابن خلدون[1].

ونظرا لخطورة هذا المنصب- أي منصب الكتابة- بالنسبة لجهاز الحكم، فقد سن الفاطمين بشأنه قوانين صارمة، يمنع بموجبها على "الكتاب" مخالطة العامة في الأسواق، أو الأماكن العامة، وأن كل من يخالف هذا المبدأ تسلط عليه إجراءات عقابية قاسية، بما في ذلك الضرب المبرح، ومما جاء في هذا الصدد: "أن زياد الكاتب ضرب بالسياط، بعد أن ثبتت عليه التهمة بأنه كان يخالط جماعة من التجار"[2].

واللافت للانتباه، أن منصب "الكتابة" على خطورته ظل حكرا على العناصر الصقلبية، ولم تشر المصادر- على تنوعها- أنه تولى هذا المنصب كتامي أو صنهاجي، رغم أ م كانوا عصب الدولة ورجالها، ونستنتج أن الخلفاء كانوا أحرص على إبعادهم عن الاضطلاع بأسرار الدولة، أوربما لقلة لقل كفاء م في هذا ا ال!.

وربما انتقل مذهب الكتابة هذا من الأب إلى الابن بعد الوفاة، وقد تكرر هذا التقليد في دولة الفاطميين بشكل واضح، ومثل ذلك أن نظيف الكاتب، وبعد وفاته انتقل منصبه إلى ولده على الرغم من حداثة سنه وكان ذلك في أيام الخليفة المعز لدين الله[3]، ولا شك أن الفاطميين قد قصدوا من ذلك تنشئة صغار العبيد على الولاء للدولة، ومن ثم الحفاظ على روح المؤسسة وبقائها، لأن من شأن الولد حرصه على تشريف سمعة أبيه من خلال حسن تسيير المؤسسة التي تحت يده، ويبدو أن هذا النمط الإداري في التعيين له حسناته من حيث تسيير المؤسسات في تلك الفترة.

---

[1] المقدمة،ص789.

[2] الجوذري، سيرة الاستاذ جوذر، ص69.

[3] نفس المصدر،ض119.

وقد أفادت خبرة جوهر[1] ككاتب لدى الخلفاء الفاطميين بأن يرتقي في السلم الإداري إلى منصب وزير[2]، في بلاط المعز لدين الله الفاطمي، وتحت قيادته كل العناصر الكتامية والصنهاجية تأتمر بأمره وتنتهي بنهيه، وحول هذه المكانة المرموقة التي بلغها جوهر، يذكر "القاضي النعمان"[3]، على لسان المعز قوله: "وقد قدمت عليكم من قد علمتموه- يعني جوهر- وأقمته فيكم مقام نفسي، وجعلته معكم كأذني وعيني.." ومنذ ذلك الحين أصبح جوهر بمثابة المفوض الوحيد للخليفة المعز، وهو تشريف لم يحظ به من كان قبله أو من جاء بعده.

غير أن جوذرا يظل أعظم شخصية بين العبيد حظيت بأداء وظائف عليا في عهد الفاطميين، فمن مجرد خادم يعمل في قصر المهدي[4] إلى مشرف على بيت المال وخزائن البز والكساء، وسفير للقائم بأمر الله يتوسط بينه وبين أوليائه، وسائر عبيده[5]، ليرتقي بعد ذلك على عهد الخليفة المنصور بالله إلى منصب المشرف العام على الملك، وسائر البلاد، مع احتفاظه دوما بمنصبه السابق[6].

وقد بلغ تفاني جوذر في خدمة سلطان الخلفاء مبلغا جعله ينال ودهم واحترامهم، وأن يحظى بينهم بسمعة طيبة، مكنته من استخدام نفوذه الواسع لرعاية مصالح بني جنسه من الصقالبة، فكان بحق لسان حالهم، والمنافح عن حقوقه في العديد من المناسبات، بدليل توسطه لدى المعز لدين الله في شأن توظيف ابن لأحد الكتاب الصقالبة، ممن تقدمت خدمتهم في الدولة، حيث قبل المعز وساطته في رقعة مكتوبة أمضاها ها الأخير بخط يده[7].

---

(1) * هو "جوهر بن عبد الله الرومي، أبو الحسن، باني "القاهرة" و"الجامع الأزهر"، من موالي المعز، سيره من القيروان إلى مصر، فدخلها سنة 358هـ/968م، وأرسل الجيوش لفتح بلاد الشام وضمها إليه، وبقي حاكما مطلقا، إلى أن قدم المعز محله، وصار من عظماء قواده، الزركلي، الأعلام، ج2، ص146، الذهبي، العبر في خبر من غبر، ص16، علي إبراهيم حسن، تاريخ جوهر الصقلي، ص14 وما بعدها.

(2) ابن أبي دينار، المؤنس ، ص61، المقريزي،الاتعاظ،ص93.

(3) القاضي النعمان، ا الس والمسايرات، ص256.

(4) انظر: الجوذري،سيرة الاستاذ جوذر ، ص35.

(5) نفس المصدر ، ص39.

(6) نفسه، ص44، الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين،ج5 ، ص161.

(7) الجوذري، المصدر السابق، ص97.

وإن كان "الصقالبة" قد تمتعوا بكل المؤهلات التي مكنتهم من اعتلاء أرقى المناصب والرتب في السلطة وا تمع، فإن الأمر لا يبدو كذلك بالنسبة للعبيد السود، الذين ظلوا على خدمتهم كجنود في الجيش الفاطمي[1]، أو كخدم لا تتعدى وظائفهم عن الخدمة في القصور[2]، وربما كان السبب في ذلك أ م لم ينالوا حظهم الكافي من التربية والتعليم، مثل ما هو الشأن مع نظرائهم الصقالبة.

أما العبيد الروم- فإن المصادر- التي بين أيدينا، لم تسعفنا، بما يدل على أن هؤلاء نالوا وظائف سامية في الدولة، على الرغم من كثرة السبي، الذي كانت تعود به الجيوش الفاطمية من بلاد الروم[3]، باستثناء ما ذكر عرضا في بعض المصادر، حول شراء عبيد الله المهدي وولي عهده القائم لعبد رومي من مدينة سجلماسة ليتولى خدمتهما[4].

لقد تمتع العبيد عموما، والصقالبة تحديدا بكل حقوق المواطنة في ا تمع، فزيادة على الوظائف التي شغلوها، فقد كان لهم نصيب أوفر من الامتيازات على الأراضي والإقطاعات، تماما كما كان للكتاميين والصنهاجيين، أو ربما يزيدون عنهم، سواء استعملوا هذه الأراضي كمساكن لهم ولعائلا م، أو في إطار الاستفادة منها كمستثمرات خاصة، وتفيدنا بعض المصادر، بأنه تم اقتطاع ضيعة لأحد أبناء الصقالبة كهبة من الخليفة المعز، اعترافا بما قدمه والده من خدمات لصالح الدولة[5].

ويذكر "القاضي النعمان" في نفس السياق، قوله: "وسمعته- يعني المعز- يقول لبعض خاصة عبيده، وقد قدم عليه هذا الأخير من المهدية، فأمره بالمقام بحضرته، وخصه بالقرب منه لقديم ولايته"[6].

(1) موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ج2، ص92، حسن إبراهيم حسن وآخر، المعز لدين الله، ص182، بوبة مجاني، النظم الإدارية في بلاد المغرب خلال العهد الفاطمي- رسالة دكتوراه- إشراف: محمود إسماعيل عبد الرزاق، جامعة قسنطينة، قسم التاريخ، 1995، ص292.

(2) القاضي النعمان، الافتتاح، ص303، ابن أبي الضياف، الاتحاف ، ص156.

(3) لقد بلغ عدد ما سبى الفاطميون من بلاد الروم في غزو واحدة "إحدى عشر ألف مملوك"، أنظر، الداعي إدريس، المصدر السابق، ص50.

(4) اليماني، سيرة الحاجب جعفر، ص122.

(5) الجوذري، السيرة الاستاذ جوذر،ص126.

(6) ا الس والمسايرات، ص463.

وتجدر الإشارة أيضا إلى مسألة فقهية بالغة في الأهمية تتعلق "بميراث العبيد"، فقد ورد الفصل فيها من قبل المعز لدين الله تقضي بجواز توريث العبيد، شرط بقائهم على الولاية[1]، ونستنتج من خلال هذا الحكم القضائي أن أحوال العبيد الشخصية تجري مجرى "الأحرار"، والملاحظ هنا، أن الغرض منه إعطاء هؤلاء مزيدا من الحقوق الاجتماعية، التي تحفظ كرامتهم، وتسمح لهم بالاندماج التدريجي في ا تمع، شأ م في ذلك باقي الطبقات الاجتماعية الأخرى.

لقد أعلن بعض الصقالبة عن امتعاضهم من كلام الخليفة المعز، وهو يشيد بدور "كتامة"، وأفضالها على الدولة بقولهم: "فنحن يا أمير المؤمنين، فما ترانا قصرنا، وقد كان لنا من العناء والجهاد، كمثل ما كان لغيرنا، فمن نازعنا ذلك، فليعد مشاهدنا ووقائعنا ومقاماتنا، ومن استشهد منا!"[2]، من الواضح أن هذا الاعتراض من قبل الصقالبة دليل آخر على أ م يعتبرون أنفسهم طرفا مهما في معادلة السلطة، وأن كلام المعز بالنسبة لهم امتهان لدورهم أمام "كتامة"!.

ويبدو أن جواب المعز لدين الله على احتجاج الصقالبة، جاء كبحا لطموحهم السياسي، ومحاولة منه لرد الاعتبار لكتامة، ودورها الريادي، حيث قال لهم: "لا سواء، إنا م ملكناكم، ولم نملكهم بكم، أرأيت لو تركت أنت وأمثالك في بلدانكم، أكنتم تأتوننا؟! قال: لا"[3].

وخلاصة لما سبق، يظهر جليا أهمية الدور الذي لعبه "العبيد" في كل مرحلة من مراحل الدولة الفاطمية، وأن ما بلغوه من نفوذ وسلطة، يعكس بما لا يدع مجالا للشك طموحا م السياسية، لكن يبدو أن هذه الطموحات لم تكن ترقى إلى مستوى خلق كتلة سياسية دد السلطة، بل على العكس، فقد ارتأى الفاطميون فيهم مصلحة مرحلية أمام تزايد نفوذ كتامة وصنهاجة، لإحداث توازن سياسي وطبقي هذا من جهة، ومن جهة أخرى لصد الضربات الموجعة التي تلقوها من طرف زناتة، وبعض القبائل المناوئة لهم .

---

[1] القاضي النعمان ، المصدر السابق، ص394.

[2] نفس المصدر ، ص246.

[3] نفس المصدر، ونفس الصفحة.

الفصل الثاني:

طبقات المجتمع

- طبقة الخلفاء و رجال الدولة.
- طبقة الجند.
- طبقة التجار.
- طبقة العامة.
- طبقة العبيد.
- طبقة أهل الذمة (اليهود والنصارى).

لقد عرف مجتمع المغرب الإسلامي على عهد الفاطميين مثل غيره من ا تمعات الأخرى تباينا بين طبقاته الاجتماعية، انطلاقا من الحاكم، ووصولا إلى الرعية؛ ومرورا بسائر فئاته.

وبناء على ما تقدم، نستهل حديثنا في هذا المضمار بالطبقة الحاكمة، على اعتبار أ ا تصدرت قمة الهرم الاجتماعي.

•طبقة الخلفاء و رجال الدولة:

إنه برغم قصر المدة التي قضاها خلفاء الفاطميين في بلاد المغرب الإسلامي، وهي المرحلة التي امتدت من سقوط عاصمة الإمارة الأغلبية في سنة 297هـ/909م، إلى غاية خروج المعز لدين الله- رابع الخفاء الفاطميين، من إفريقية متوجها إلى مصر من سنة 362هـ/972م[1] إلا أ م أظهروا تمسكا بمباهج الحياة ورغدها، فأقاموا القصور والفنادق، والحمامات، والمت هات، وما إلى ذلك، وبسطوا هالة من القداسة على أنفسهم، وأنفقوا بسخاء على بناء حاضرة لهم، وكل ذك يقيم دليلا على عظمتهم، ومظهرا من المظاهر ينم عن ثرو م.

فمنذ دخول عبيد الله المهدي بلاد إفريقية أظهر للناس وللخاصة من رجاله أنه الحاكم المطلق الذي تجب طاعته، ويهاب جانبه، إذ استهل أعماله بأخذ الأموال التي كانت بأيدي دعاته ومشايخ القبائل، واستولى عليها[2]، ويعترف "القاضي النعمان" قائلا: "فكان ذلك من أول ما أحال القلوب الفاسدة، وتوهموا أ م يكونون كما عودهم أبو عبد الله، يأمرون وينهون، ويقبضون، ويبسطون"[3].

---

(1) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص63، زامبارو، معجم الأنسباب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص144.

(2) ابن عذاري، البيان، ج1، ص150، المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج1، ص66، الحبيب الجنحاني، السياسة المالية للدولة الفاطمية في المغرب، ص53، بوبة مجاني، دراسات إسماعيلية، ص127.

(3) الافتتاح، ص239.

هذا وقد ورد في بعض المصادر الإسماعيلية ما يدل على المغالاة في وصف شخص الخليفة المهدي حتى شبهته "بالشمس المنيرة"[1]، وقد جلس في مجلسه، وأحاط نفسه بالحرس والخدام، وحوله رجال دولته على مراتبهم، من دعاة، وقضاة، وقواد، وعلماء، وعن يمينه وشماله يقف رجلان من عبيده "وبيدهما "مذبتان" وهما يذبان على رأسه"[2]، وكان الخليفة إذا استوى في مجلسه، أو كان في خلوته، جعل حاجبا على أبواب مقصورته لمنع دخول أي كان، إلا بأمر منه"[3].

وقد بالغ الدعاة في تعظيم وإجلال شخص الخليفة، أن كانوا إذا دخلوا عليه، قبلوا الأرض بين يديه، ومرغوا خدودهم عليها، رافعين أكفهم بالدعاء والحمد عليه، أن أكرمهم الله برؤية وجهه"[4].

وليس أدل على مظاهر الأ ة والعظمة من مجالس الشعر والأدب التي كانت تعقد في قصور الخلفاء لمدحهم وتعظيم سلطا م، فقد أغدق الفاطميون على الشعراء والأدباء بسخاء، مما جعل هؤلاء يكثرون من التردد عليهم، ومدهم للكسب، وأملا في الحصول على الأرزاق والهبات والهدايا، ومن بين الشعراء الذين مدحوا عبيد الله المهدي، "محمد البديل"، الذي قال في وصفه أبياتا، فيها من المغالاة و ما فيها، كالتي قال في مطلعها:

حل برقادة المسيح   حل ا آدم ونوح

حل ا أحمد المصطفى   حل ا الكبش والذبيح

حل ا الله ذو المعالي   وكل شيء سواه ريح[5].

---

[1] أنظر" اليماني، سيرة الحاجب جعفر، ص129.

[2] نفسه، ص130.

[3] الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، من عيون الأخبار، ج5، ص162.

[4] أنظر، القاضي النعمان، ا الس والمسايرات، ص476.

[5] الافتتاح ، ص239.

كما امتدحه أيضا الشاعر "سعدون الورجيني" فأجاد، فأمر له "المهدي" "بصلة جزيلة وبأن يجرى له عليه لكل عام"[1]، وأفسح الفاطميون مجالس أخرى للمناظرة، وشجعوا علماءهم، وعلماء أهل السنة من الأحناف والمالكية على ورودها، وقد اشتملت هذه ا الس على مناقشة مسائل في الشريعة الإسلامية ورد فيها الخلاف خاصة بين علماء الإسماعيلية وعلماء أهل السنة[2] ثم أخذت هذه ا الس في التوسع أكثر لتشمل شتى العلوم والمعارف، ويبدو أن المعز لدين الله كان أحرص خلفاء الفاطميين على دراسة العلوم والتزود منها، فقد أشار "الدرجيني" إلى هذه الحقيقة في طبقاته"[3]، حيث أورد: كان يجمع العلماء حوله للمناظرة في مختلف العلوم.."، هذا وأظهر الفاطميون اهتماما بالغا بتحصيل العلوم الغيبية والتفوق فيها، مثل "علم النجامة" أو "علم النجوم"، إذ كان الخليفة المنصور بالله من الذين برعوا في هذا الميدان"[4]، ولم يكن المعز لدين الله يرى بأسا من الجلوس إلى المنجمين، والاستماع إليهم فحسب، بل كان يجزل الأموال جزافا على المنجمين الذين يحضرون مجالسه، قادمين إليه من مناطق بعيدة"[5].

كما جعل الفاطميون الأطباء مداومين على الخدمة في القصور لتطبيب الخلفاء، ومن اعتل من أهل الحكم، وتجدر الإشارة في هذا المقام، إلى أن أكثر الأطباء الذين لازموا الخلفاء الفاطميين كانوا من اليهود!؟، إذ نجد من بينهم الطبيب "إسحاق بن سليمان"، المعروف بالإسرائيلي، وكان قد خدم المهدي[6]، بل ولازم المنصور بالله طيلة فترة حكمه[7]، ومنهم ومنهم أيضا الطبيب "أحمد بن الجزار"، وهو الذي تولى تطبيب المنصور بالله بعد الطبيب

---

(1) القاضي النعمان، الافتتاح، ص302.

(2) الدباغ، معالم الإيمان، ج2، ص204 وما بعدها.

(3) طبقات المشايخ بالمغرب، ج1، ص136.

(4) القاضي النعمان، ا الس والمسايرات، ص131.

(5) نفس المصدر ، ص431.

(6) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص87، الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج23، ص625، ابن أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج3، ص58.

(7) ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص60.

"إسحاق"، وقام برعايته أثناء مرضه، إلى أن حضرته الوفاة، وكان ذلك في سنة 341هـ/952م"[1].

وقد تشبه الدعاة والقضاة بخلفائهم في مجال الصحة، فاستقدموا الأطباء، وأدنوا م لتهم، فقد خصص الداعي أبو عبد الله الشيعي جناحا خاصا في قصره برقادة، فكان الطبيب "ابن الجزار" يتردد عليه فيه لمعالجته من مرض "حصى الكلى"[2]، كما تقدم "القاضي النعمان"- قاضي قضاة الفاطميين- إلى الطبيب نفسه بمكافأة ثمينة نظير مداواة هذا الأخير لابن أخ له، كان قد أصيب بعلة منعته من ممارسة الحكم، وقد اشتملت هذه المكافأة على كسوة، ومبلغ مالي معتبر قيمته ثلاثمائة مثقال"[3].

وقد اتخذ الخلفاء الفاطميون السرير[4] لجلوسهم، وتأنقوا في صنعه للدلالة على عظمة سلطا م، وهيبتهم في نفوس الخاصة والعامة، وكان أول من اتخذه منهم الخليفة عبيد الله المهدي[5]، إلا أن المصادر لم تسعفنا عن صفة هذا السرير وصنعته، واكتفت بعضها بالإشارة بالإشارة فقط إلى أن هذا السرير كان ينصب للمهدي في موضع فسيح من قصره، بعد أن يتم فرش ا لس من أسفله بفرش نفيس"[6]، أما عن صفة سرير المعز لدين الله الفاطمي، فقد فقد جاء في بعض المصادر، "أن قوائمه كانت من عاج أحمر"[7].

---

[1] المقريزي، الاتعاظ، ج1، ص90، الزركلي، الأعلام، ج1، ص321.

[2] أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص59.

[3] المصدر نفسه، ص59، 60.

[4] عرفه ابن خلدون بقوله: "وأما السرير والمنبر والتخت والكرسي، فهي أعواد منصوبة أو أرائك منضدة لجلوس السلطان عليها مترفعا عن أهل مجلسه أن يساويهم في الصعيد، ولم يزل ذلك من سنن الملوك قبل الإسلام، وفي دول العجم، وقد كانوا يجلسون على أسرة من ذهب"، المقدمة، ج2، ص808، الإصطخري، المسالك والممالك، ص130.

[5]انظر، اليماني، سيرة الحاجب جعفر، ص119.

[6] نفس المصدر، ص130.

[7] الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، ج1، ص133.

كما اختص الفاطميون باستعمال المظلة[1]، وهي عبارة عن قبة على هيئة خيمة، قائمة على رأس عمود، لها مكانة جليلة لعلوها رأس الخليفة، وفي أثناء سير موكب الخليفة يبقى حامل المظلة على يساره، مجتهدا ألا يزول ظلها عن الخليفة، وربما يستعمل الخليفة المظلة أثناء الحروب أيضا، فقد اتخذها المنصور بالله حينما خرج محاربا لأبي يزيد الزناتي، وكان الذي يحمل المظلة على رأسه صقلابي من عبيده"[2].

وسعى الفاطميون إلى التميز بمظهرهم، فاعتنوا بملابسهم، وبذلوا فيها بسخاء، ولأجل ذلك أنشأوا دارا للكسوة[3] بالمهدية، كان يفصل فيها جميع أنواع الثياب من أكسية الشتاء والصيف، حيث كانت في أغلبها موشاة بالذهب أو الفضة أو الديباج، ونفهم من إشارة بعض المصادر "أن جوذرا الصقلبي كان قد تولى الإشراف المباشر على شؤون هذه المصلحة على أيام الخليفة القائم بأمر الله"[4].

وبالغ الخلفاء الفاطميين في إظهار التأنق في لباسهم، حتى كان لكل يوم عندهم لون، ولكل مناسبة بدلة أو أكثر، ويبدو أ م كانوا يراعون في ألبستهم تجانس الألوان وتناسقها، فقد كان لباس عبيد الله المهدي عشية مبايعته بالخلافة في رقادة يشتمل على ثياب من خز، وعمامة مثلها"[5]، كما لبس المنصور بالله ثيابا حمراء مذهبة الأكمام، والأذيال، واتخذ عمامة عمامة من نفس لون الثياب"[6].

وقد ذهب الفاطميون في بعض الأحيان إلى المغالاة في إظهار البذخ، بأن كسوا دوا م المنسوجات الحريرية المطرزة بالذهب والفضة والحلي أيضا، وخاصة في أيام الأعياد والمواسم، وفي هذا الصدد ورد في بعض المصادر، في وصف موكب الخليفة المنصور بالله يوم عيد

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص816.

(2) الداعي إدريس القرشي، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، من عيون الأخبار، ج5، ص173.

(3) وتسمى أيضا بدار "الطراز"، ارجع في ذلك لابن خلدون، المقدمة، ص816.

(4) الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، ص39.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص158.

(6) الداعي إدريس القرشي، نفس المصدر ، ص256.

الأضحى المبارك، بأنه: "ولما كان يوم النحر، وهو يوم الجمعة، لعشر خلون من ذي الحجة، ركب الإمام فرسا وردا أحمر بشفاف مذهب.."[1].

ومن مظاهر ترف الفاطميين وإسرافهم أيضا، هي قيمة الهدايا التي كان يفرقو ا على أعيان الدولة وكبار موظفيها، ومما جاء في هذا الشأن، أن المنصور بالله حينما ضرب السكة بمدينة المنصورية، بعث منها ألف دينار إلى جوذر الصقلبي"[2]، كما تقدم ـدايا لا تقل قيمة عن الأولى إلى زعيم صنهاجة وقائد أنجاده زيري بن مناد، كان من جملتها خيول مسرجة، ولجم محلاة بالذهب والفضة"[3].

كما حاكى كبار الموظفين في الدولة خلفاءهم في بذل الأموال والهدايا، لاسيما إلى الخلفاء والأمراء، ولا شك أ م أرادوا ا التقرب إليهم، وكسب الحظوة عندهم، فهذا جوذر الصقلبي يتقرب بمال جزيل إلى الخليفة المنصور بالله، ورد في بعض المصادر إلى أنه كان يربو عن عشرة آلاف دينار"[4]، وقد يتساءل المرء في هذا المقام عن مصدر كل هذه الثروة التي كانت لجوذر، كما جمع قاضي طرابلس "محمد بن عمران" على عهد الخليفة عبيد الله المهدي لخزينة الدولة أموالا من الرشى والأحباس، ورفعها جميعها إلى عبيد الله، فكانت له وسيلة إليه"[5]، وما كان من الخليفة إلا أن كافأه على هذا الصنيع بأن عينه قاضيا على القيروان في سنة 311هـ/923م"[6].

وتباهى الفاطميون في مجال الحضارة والعمران، فشيدوا لأنفسهم القصور الفاخرة والفنادق الرفيعة، والحمامات، وكثير من المنشآت ليس هذا فحسب بل وعمدوا إلى طمس كل ما كان يرمز إلى حضارة من سبقوهم في هذا الميدان، وتتجلى لنا هذه الخطوة الخطيرة

(1) الداعي إدريس القرشي، تاريخ الخلفاء الفاطميين،ج5، ص256.
(2) الجوذري، المصدر السابق، ص60.
(3) ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسير م، ص29.
(4) الجوذري، المصدر نفسه، ص47.
(5) ابن عذارى، البيان، ج1، ص188.
(6) نفس المصدر ، ونفس الصفحة.

من خلال الأمر الذي أمر به الخليفة عبيد الله المهدي والقاضي بمحو أسماء الذين بنوا المساجد والقصور والقناطر برقادة، وكتابة اسمه عليها[1].

وقد كان من بين أشهر القصور التي أنشأها الخلفاء الفاطميين وتفننوا في تشييدها، نذكر مثلا "قصر المنارة" الذي بناه الخليفة عبيد الله المهدي له ولولي عهده القائم بأمر الله، بالمهدية في مقابل البحر، وقد أتت بعض المصادر على وصفه فأوردت: ".. و ا قصره الحسن البناء العجيب الإتقان والارتقاء.."[2]، ويحمل إلينا الباحث التونسي "حسن حسني عبد الوهاب" إشارات هامة حول زخرفة هذا القصر، مفادها: "أن حفريات حديثة كشفت عن سطوح مغشاة بالفسيفساء العربية، ذات لونين، أما الصور التي تغشاها، فهي عبارة عن باقات من الزهور في غاية الروعة والجمال"[3]، كما يعد "قصر الإيوان" و"قصر الخورنق" اللذان أنشأهما الخليفة المعز لدين الله بمدينة صبرة[4]، وما تخللهما من حجرات وقاعات للجلوس من أبرز بنيان الفاطميين في مجال العمارة، ولا شك أ ا صورة صادقة لما كان يحياه الخلفاء وأهل تلك القصور من ترف اجتماعي، ولعل في وصف "ابن حماد" ما يحملنا إلى هذا الاعتقاد، فقد أورد في هذا الصدد: ".. وبنيت فيها بعد ذلك القصور الشامخات والأبنية الرفيعة، وغرست فيها الغرس البديعة، وجلبت إليها المياه المنيعة.." ثم أضاف قائلا: ".. ومن قصورها "الإيوان" بناه المعز لابنه، و"مجلس الكافور"، و"حجرة التاج"، و"مجلس الريحان"، و"حجرة الفضة"، و"قصر الخلافة"، و"الخورنق"، وقصور بين ذلك كثيرة.."[5]، وبالإضافة إلى ذلك كله، فقد أمر المعز لدين الله بأن تتخذ قصور أخرى على طول المسافة التي تربط من مدينة صبرة إلى مصر، وكان ذلك في سنة 355هـ/965م"[6].

---

[1] ابن عذارى، المصدر السابق، ص159.

[2] الإدريسي، المغرب العربي من نزهة المشتاق، ص143.

[3] ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، ج3، ص364.

[4] وتسمى "المنصورية" نسبة إلى مؤسسها، الخليفة المنصور بالله، أنظر عنها: البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص25، الإدريسي، نفس المصدر ، ص146، ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسير م، ص23.

[5] ابن حماد، المصدر السابق، ص24.

[6] المقريزي، الاتعاظ، ج1، ص96.

واللافت للانتباه بعد كل هذا الثروة الطائلة التي حملها المعز معه إلى مصر، إذ ورد في بعض المصادر بشأنها: "ولما عزم المعز على الرحيل إلى مصر، أتاه بلكين بن زيري بألفي جمل من إبل زناتة، وحمل ماله بالقصور من الذخائر، وسبك الدنانير على شكل الطواحين، جعل على كل حمل قطعتين، في وسط كل قطعة ثقب، تجمع به القطعة إلى الأخرى، فاستعظم ذلك الجند والرعية، وصاروا يقفون في الطرق لرؤية بيت المال المحمول"[1].

ومما تقدم، ألا تتوضح لنا بعد- كل هذا- الصورة الحقيقية عن حياة أهل الحكم، الذين جمعوا أموال البلاد فأنفقوها على بناء القصور الفاخرة وإعداد لجم الدواب من الذهب الخالص، على حساب معاناة الرعية لتبقى بذلك الفوارق الاجتماعية بارزة بين الحاكم والمحكوم، وبين الغني والفقير.

(1) المقريزي، الإتعاظ ،ج1 ،ص 62.
Charles (A. J) Histoire de l'Afrique du nord, p66.

•طبقة الجند:

حرص الفاطميون منذ وقت مبكر على تكوين جيش قوي يكون قادرا على حماية كيا م السياسي، والدفاع عن مصالحهم في الداخل والخارج، وهو أسلوب تنتهجه كل دولة تسعى إلى السيطرة والنفوذ بصرف النظر عن وسائلها وأهدافها، ولا شك ان نواة الجيش الفاطمي بدأت تتشكل مع أفراد من قبيلة كتامة، من الذين آمنوا بدعوة أبي عبد الله الشيعي، فكانوا بمثابة العصبة حوله تحميه، وتدافع عنه ضد خصومه[1]، ومع مرور الزمن تضاعف عددهم، واصبحوا معه بحاجة إلى نظام خاص، وقد أورد "القاضي النعمان" في شأن هذا النظام وتقسيماته بأنه "قسم كتامة أسباعا، وجعل على كل سبع منها عسكرا، وقدم عليه مقدما، وأطلق بكل موضع داعيا، وسمى المقدمين والدعاة "المشايخ"، وإن كان فيهم من لم يبلغ السن"[2]، وإن كانت المصادر- التي بين أيدينا- لم تقدم تفاصيل أكثر حول نظام وعمل هذا الجيش، غير أن ما يمكن استنتاجه هو أن الداعي راعى في إنشائه الناحية السياسية والعسكرية، حيث كانت مهمة الدعاية عادة ما تسبق العمليات العسكرية عند كل فتح، وبإتباعه لهذا النظام المزدوج استطاع أن يكتسح المدن والقرى، ويستولي عليها الواحدة بعد الأخرى[3].

والملاحظ أن الداعي كثيرا ما وعد أنصاره بذهب القيروان، وما في خزائن بني الأغلب، استحثاثا لحماسهم، وإثارة حب الغنيمة لديهم[4]، وقد تم له ذلك، ودخل تحت إمرته طبقات من الناس، منهم من أراد بذلك وجه الله، وآثر بما عنده، ومنهم من أراد الدين والدنيا، ومنهم من تبعه يرجو الذكر والرئاسة، ومنهم أيضا من صار إليه خوفا، وتقية ومداراة"[5].

---

(1) القاضي النعمان، الافتتاح، ص100.

(2) المصدر نفسه، ص125.

(3) المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج1، ص62.

(4) ابن عذارى، البيان المغرب، ج1، ص150.

(5) القاضي النعمان، نفس المصدر ، ص118.

والملاحظ أن كل هذه الدوافع جعلت أهالي البلاد ينخرطون أفواجا في صفوف الجيش، حتى أصبح عدده في سنة 296هـ/908م، يقدر بـ "مائتي ألف جندي 200.000"، بين راجل وفارس، ليرتفع هذا العدد عند دخوله إلى رقادة إلى نحو ثلاثمائة ألف جندي"[1].

وبمجرد اعتلاء عبيد الله المهدي الخلافة برقادة أمسك بزمام أمور دولته، واستبد بها، مما كان لذلك أثره داخل عناصر بناة الدولة من الكتاميين، فاتسعت الخلافات بين المهدي، وهؤلاء القادة، الذين أظهروا نية في قلب هذا النظام الجديد[2]، ولأن هذه العناصر الكتامية كان لها ثقل عسكري داخل الجيش الفاطمي،فقد سارع عبيد الله المهدي إلى تشكيل الجيش من جديد في سنة 300هـ/912م[3]، وفي هذه المرحلة ابتدأ نشاط الجيش يتضاعف برا وبحرا، وفي الداخل والخارج، منذ أن ثبتت قواعده الأولى.

وقد كان الخليفة الفاطمي هو القائد الأعلى للجيش، وعنه تصدر كل الأوامر الخاصة بالحرب، كما يتولى بنفسه الإشراف على تنظيم صفوف الجيش[4]، وأصبح المهدي يجلس على عرش الخلافة في رقادة، ويشرف مباشرة على تسيير الجيوش الغازية ضد بلاد الروم، أو قد يكلف بذلك ولي عهده القائم، مثل ما حدث في أحداث أطرابلس[5].

ونظرا لاتساع طبقة الجند، وما يمكن أن تتطلبه من نفقات، وأعباء، فقد أنشأ المهدي ديوانا خاصا بالجيش، مهمته إدارة شؤون هذه المؤسسة الحيوية، أطلق عليه اسم ديوان العطاء"[6].

---

(1) القاضي النعمان، الافتتاح، ص118.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص135.

(3) Charles (A.J), Histoire de l'Afrique du nord. p.57.

(4) الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، ص39 وما بعدها، الداعي إدريس القرشي، تاريخ الخلفاء الفاطميين ، ج5، ص60.

(5) ابن عذاري، البيان ج1، ص168.

(6) القاضي النعمان، الافتتاح ، ص304.

أما عن شروط الالتحاق في صفوف الجيش الفاطمي، أو نظام الارتقاء في مراتبه، فإن الأمر يتوقف على مدى تفاني الجندي في الخدمة، فإن ذلك من شأنه أن يرفع من رتبته في الجندية، من مجرد جندي بسيط إلى قائد عام على الجيش[1].

1- عناصر الجيش:

لقد تألف الجيش الفاطمي من عناصر مختلفة، وكان اعتماد السلطة الفاطمية على كل عنصر منها، بحسب كل مرحلة من مراحل الخلافة، بالموازاة طبعا مع الأهداف التي خطها خلفاء المرحلة المغربية، إذ نجد في مقدمة هذه العناصر ما يلي:

أ- العناصر الكتامية: وقد كانوا نواة الجيش الفاطمي وعصبته، ممن ناصروا الدعوة الإسماعيلية، ودافعوا عن مبادئها، ولما عرفوا به من قوة وشدة بأس من قبل ظهور الدعوة أو بعدها، ونسبتهم إلى قبيلة كتامة، التي أورد "ابن خلدون" بشأ ا: "إ ا من أشد قبائل البربر بالمغرب"[2]، ولعل هذه الخصائص جعلت خلفاء الفاطميين يسعون منذ البداية إلى استمالة عناصرها، واستغلال إمكانا م القتالية"[3]، ضد خصومهم سواء في الداخل أو الخارج، حتى أصبح لهذه القبيلة الدور المتقدم في أبرز أحداث تاريخ الفاطميين بالمغرب الإسلامي، وبخاصة في ا ال العسكري، وما تلك الانتصارات العسكرية التي أحرزوها في الداخل، أو للسيطرة على مصر، والشام إلا دليلا على سطو ا في هذا الجانب[4].

ولقد برز دور عناصر قبيلة كتامة بخاصة في قتال أبي يزيد اليفرني الزناتي، سواء في الدفاع عن مدينة المهدية، أو لفك الحصار المطبق عليها الذي فرضه هذا الثائر على القيروان وسوسة، وغيرهما من المدن التي استولى عليها"[5].

---

[1] الداعي إدريس القرشي.تاريخ الخلفاء الفاطميين، ج5، ص85

[2] العبر، ج7، ص7.

[3] حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا، ص44.

[4] المقريزي، الاتعاظ ج1، ص62، ابن عذاري، البيان، ج1، ص162، ابن الأثير، الكامل، ج6، ص161، ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص62.

[5] الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، ج1، ص178.

وقد أشاد الخليفة المنصور بالله بدور قبيلة كتامة، وتضحيات عناصرها، لاسيما بعد انتصاره على صاحب الحمار، حينما خاطبها بقوله: "يا أهل دعوتنا، يا أنصار دولتنا، يا كتامة... اللهم إني أصبحت راضيا عن كتامة، لاعتصامهم بحبلك، وصبرهم على البأساء والضراء في جنبك تعبدا لنا، واعترافا بفضلنا، وإرادة لما افترضه الله على العباد لنا"[1].

ويبدو أن دور العناصر الكتامية بدأ في التراجع لاسيما على عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، إذ نجد أن هذا الأخير يهاجمهم ويصفهم بأبشع النعوت، وذلك من خلال جواب الخليفة على خطاب وجهه إليه جوذر الصقلبي، بشأن نزاع وقع بين رجل كتامي، وبين وكيل لجوذر حول ضيعة ادعى الكتامي تملكها، فاستأذنه جوذر في دفع ما ادعاه الكتامي، فأجابه المعز بقوله: "فلأن يكون العدل منك فيهم أولى من أن يكون من هؤلاء "السفلة"، والله يثمر مالك من حيث يرضاه.."[2]، فلا غرو إذن أن هذا التصريح من المعز يدل على أن الكتاميين، فقدوا تلك المكانة التي طالما تمتعوا ا في العهود السابقة، وأن المعز وضع نصب عينيه الاستفادة من اي عنصر آخر، توفرت فيه الكفاءة والإخلاص للدولة.

وقد قام المعز لدين الله بإحداث تغيير في سياسة الجيش بأن فسح ا ال لغير الكتاميين، كي يلعبوا دورهم فيه، وقدمهم على الكتاميين، وكان ذلك، حينما قدم جوهر الصقلي، على الكتامي جعفر بن فلاح"[3]، كما عين يوسف بن زيري الصنهاجي الأصل[4]، على بلاد المغرب، عندما أراد الرحيل إلى مصر دون أن يختار شخصية كتامية، وكأنه بذلك أدار ظهره لرجال صنعوا بالأمس أمجاد أجداده!.

ب- العناصر الصنهاجية:

لقد اشتهر العنصر الصنهاجي ضمن طوائف الجند الفاطمي، ويبدو أن الفضل في توطيد رابطة قبيلة صنهاجة بالفاطميين يرجع إلى زعيمها، زيري بن مناد، ومواقفه العسكرية

---

(1) الجوذري، سيرة الاستاذ جوذر، ص59.

(2) الجوذري ، المصدر السابق، ص122.

(3) انظر ابن ابي دينار ، المؤنس ، ص61 .

(4) الزركلي، الأعلام، ج3، ص63.

إلى جانب الخلافة الفاطمية في حر ا ضد حركة أبي يزيد الخارجية، ويتضح أن المصلحة المشتركة بين الطرفين، كانت الدافع في إحداث هذا التقارب، وانضواء الصنهاجيين تحت لواء الفاطميين كي يستظهروا م على قبيلة زناتة عدوهم التقليدي[1]، وقد ظهر هذا التضامن والمؤازرة حينما قدم زيري بن مناد عونا ماديا وعسكريا للمنصور[2]، مما دفع هذا الأخير إلى الخلع عليه، كما عقد له على قومه، ومن اتصل م من البربر، وكان ذلك سنة 335هـ/946"[3]، وزاد من شأن هذه القبيلة على أيام المعز لدين الله أن ساهمت مساهمة فعالة إلى جانبه عند خروجه إلى المغرب، وقد لمع نجم زعيمها زيري بن مناد، حينما دخل مع جوهر الصقلي أرض المغرب من سنة 347هـ/958م، وقد أبلى البلاء الحسن في القضاء على الثائرين به[4].

جـ- العناصر الصقلبية:

شارك "الصقالبة" بدورهم في الجيش الفاطمي كجند مرتزقة، وكان لهم فيه حضور واسع وفعال، وبخاصة بعد قيام عبيد الله المهدي بترتيب أفرادهم في الديوان الذي أنشأه لهذا الغرض كما ذكرنا .

وقد استفاد الفاطميون أيما إفادة من خدمات هذه العناصر في ا ال العسكري، حيث برز منهم قواد عسكريون أكفاء قادوا جيوش الفاطميين إلى الانتصار في كثير من المواجهات العسكرية التي خاضوها ضد خصومهم، سواء في البر أو في البحر، وهو الأمر الذي يبرر اعتماد السلطة الفاطمية على هذه العناصر الصقلبية، لاسيما في الحملات العسكرية الحاسمة، فقد استطاع "بشرى" الصقلبي أن يقود باقتدار الجيش الذي أنقذ عبيد الله المهدي وابنه

---

(1) عن جذور الصراع الصنهاجي الزناتي، أنظر: ابن خلدون، العبر، ج6، ص153، النويري، اية الأرب في فنون الأدب، ج24، ص159، جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، ص465، موسى لقبال، دور كتامة، ص361، حسين مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته ،ج3 ، ص407 .

(2) Charles (A. J), op.cit, p.64.

(3) الداعي إدريس القرشي، المصدر السابق، ص221، ابن حماد، المصدر السابق، ص29.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج6، ص354.

القائم من أسرهما في سجلماسة[1] كما تمكن "صابر" الخادم من إلحاق هزيمة نكراء بجيش الروم في البحر سنة 316هـ/928م، وأن يعود إلى المهدية محملا بغنائم وأموالا وأسلابا كثيرة"[2].

وإذا كانت العناصر الصقلبية قد بلغت مراتب سامية في جيش الفاطميين، فقد استغل بعض القواد منهم من الطامحين إلى النفوذ والسلطة مناصبهم العسكرية لإشباع فهمهم المادي، والانفراد بالمناطق التي وقعت تحت أيديهم"[3].

د- العناصر الرومانية:

لقد أدت العناصر الرومانية هي الأخرى أدوارا هامة في الجيش، حيث كانت ضمن فرقه النشيطة، ولما تميز أفرادها دون غيرهم من الجند، بحذقهم لصناعة كل أنواع الأسلحة، وما يحتاج إليه الجيش لأداء مهامه العسكرية[4]، ولعل ما بلغه جوهر الرومي الصقلي[5] من مكانة يعد صورة صادقة لما يمكن أن تصل إليه عناصر من هذه الفرقة من سلطة ونفوذ عسكري، ولا غرو في ذلك، فقد كشف جوهر عن مقدرات عسكرية فذة، إذ تمكن من توطيد الأمن في جميع أرجاء بلاد المغرب في أقل من سنة، وإتمام الفتوحات العسكرية التي استهلها أبو عبد الله في سنة 291هـ/903م، حيث أخضع لسلطان المعز أهالي هذه البلاد، حتى دانوا له بالطاعة والولاء[6] فلا عجب إذن إن عظم شأن جوهر الرومي عند المعز لدين الله فاختاره دون سواه لقيادة الحملةم العسكرية التي أرسلها لفتح مصر، وتلقيبه "بالقائد"[7].
"بالقائد"[7].

---

(1) اليماني، سيرة الحاجب جعفر، ص128.

(2) ابن عذاري، البيان، ج1، ص193.

(3) القاضي النعمان، ا الس والمسايرات، ص435، 436.

(4) الزركلي: الأعلام، ج2، ص146، الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج3، ص16.

(5) نسبة إلى جزيرة "صقلية" أنظر عنها: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص416 وما بعدها، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص215.

(6) الذهبي، المصدر السابق، نفس الصفحة.

(7) علي إبراهيم حسن، تاريخ جوهر الصقلي، ص16.

هـ- العناصر السودانية:

يبدو أن تأثير العناصر السودانية في جيش الفاطميين كان ضئيلا إذا ما قورن مع باقي العناصر الأخرى، وربما انتظموا في فرق خاصة داخل الجيش تعمل في ظروف استثنائية، ويتضح هذا الدور بخاصة في شخصية "صندل الفتى" هذا الأخير أشارت بعض المصادر إلى أنه كان يعمل جاسوسا حربيا لدى عبيد الله المهدي، قبل ارتقائه إلى رتبة قائد في الجيش فيما بعد، حيث كانت مهمته ترتكز على نقل الأخبار في سرية تامة بين عبيد الله المهدي وولي عهده القائم[(1)]، أو ربما أوكلت لهذه العناصر السودانية مهام أخرى، مثل قيامهم على تعذيب المخالفين للسلطة الفاطمية، فقد ورد في بعض المصادر في قصة تعذيب جعفر بن خيرون: ".. وطلع السودان فوق السرير، فقفزوا عليه حتى مات، فلما مات أخذوه، فحملوه على بغل، والقوه في حفير"[(2)]، لكن دور هذه العناصر السودانية بدأ يتضح أكثر على أيام الخليفة المعز لدين الله، حيث كانت ضمن فرق الجيش، الذي سيره هذا الأخير لفتح مصر في سنة 362هـ/972م"[(3)].

وفحوى القول أن كل هذه العناصر شكلت الدعامة الأساسية التي تألف منها الجيش النظامي الفاطمي، مع الأخذ في الاعغتبار التحاق بعض العناصر الإضافية به، بصفتهم مرتزقة مثل الطرابلسيين، الذين انضموا إلى الجيش على عهد المنصور بالله، وكان عددهم حوالي 2240 جندي[(4)] أو بعض العناصر الزناتية التي انخرطت فيه لظروف أمنية بحتة[(5)]، ومهما يكن من أمر فإن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المزرية، كانت دافعا مباشرا أو غير مباشر لهؤلاء الجند للالتحاق بصفوف الجيش الفاطمي، أملا في تحسين أحوالهم المعيشية.

---

(1) انظر اليماني ، سيرة الحاجب جعفر ، ص122.

(2) المالكي، رياض النفوس، ج2، ص63.

(3) موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ص92.

(4) الداعي ادريس القرشي ، المصدرالسابق ، ص180.

(5) ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد، ص30، المقريزي، الاتعاظ، ج1، ص93.

2- امتيازات الجند الفاطمي:

لقد وظف الفاطميون كل الإغراءات المادية والمعنوية كي يحافظوا على عاطفة الجيش، الذي هو أدا ـم لتحقيق أهدافهم السياسية البعيدة، لذا عملوا بكل الطرق والوسائل على استمالتهم، والتي ندكر منها:

*** دفع رواتب مغرية للجند:** رغم غياب نصوص دقيقة تشير إلى قيمة الراتب الذي كان يتقاضاه الجندي الفاطمي، غير أن بعض القرائن توحي بأنه كان راتبا مغريا، لاسيما وأن الدولة توفرت لديها الأموال الطائلة التي كانت تصلها، إما عن طريق السلب والنهب لأموال الثائرين، أو بواسطة الضرائب المتنوعة، ولا شك أن المبلغ المالي الهام، الذي خصصه المعز لدين الله للنفقة على الجند الكثيف الذي سيره في حملة مصر سنة 358هـ/968م، يعكس لا محالة، حرص الدولة على تحصيل رواتب جندها في الآجال المحددة، حيث قدرت بعض المصادر أن قيمة هذا المال بلغ "مائة ألف دينار واثنتين وعشرين ألف درهم"[1]، وربما تقاضي جندي واحد في هذه الحملة المذكورة من "عشرين دينارا إلى ألف"[2].

*** تمكينهم من الحصول على إقطاعات:** وقد حرص الخلفاء الفاطميون على أن تكون هذه الأراضي المقتطعة قريبة من قصورهم، و ا كل المرافق الضرورية التي يمكن أن تلبي احتياجات الجندي، مثل توفر الأسواق، والفنادق، والحمامات.. وذلك حتى تتفادى الدولة حدوث اصطدامات بين الجند والرعية، وإذ كان هذا التخطيط العمراني نجده بارزا في أغلب المدن التي أنشأها الفاطميون في بلاد المغرب الإسلامي[3]، لكن هذا العزل العمراني لم يمنع الجند من ارتكاب تجاوزات خطيرة في حق الرعية، فامتدت أيديهم بالنهب لأموالها

---

(1) الجوذري، سيرة الاستاد جودر، ص92.

(2) ابن أبي دينار، المؤنس، ص62.

(3) ومثل ذلك التخطيط العمراني الذي اعتمده عبيد الله المهدي في تخطيط مدينة المهدية، حيث أورد "ياقوت الحموي" في هذا الصدد: "فسكن هو وعسكره بالمهدية، واسكن العامة في زويلة، وكانت دكاكينهم وأموالهم في المهدية، وبزويلة مساكنهم.."، معجم البلدان، ج3، ص160، الإدريسي، ا هة، ص144، البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص29، ابن حوقل، الصورة، ص74.

ومواشيها، وقد أظهر الخليفة القائم بأمر الله عجزه التام عن وقف اعتداءات الجند المتكررة، واكتفى بنهي جوذر عن شراء اللحم، الذي يباع في أسواق الجند، ومما جاء في هذا الصدد: "يا جوذر لا تأكل من هذا اللحم، إلا ما أطعمناك إياه من مطبخنا حلالا، فإن كل ما يباع بأسواق العسكر، قد خبث لارتكا م النهي، واحتيالهم على النهب"[1].

* **إغراؤهم بالمناصب:** لقد مر معنا- كيف كانت مكافأة الخليفة المنصور بالله لزيري بن مناد الصنهاجي، الذي سانده في حربه على أبي يزيد الزناتي، بأن عقد له ولقومه على مدينتي "أشير" و"تاهرت" وأعمالهما[2]، وأصبح زيري ذا التقليد أشبه بالأمير في إمارته، وتحت يده تقع كافة الصلاحيات، بل وعاشت العناصر الصنهاجية في ظل حكمه بحبوحة اجتماعية، وكأ ا طبقة أرستقراطية محظوظة، لاسيما بعد قيام زيري بضرب "السكة"، فعمرت المدينة- أشير- بالتجار، ورغب الناس في سكناها"[3].

* **إغراقهم بالمنح والعلاوات:** وزيادة على الراتب الشهري الذي يتقاضاه الجندي، كانت الدولة تقوم بتوزيع مكافآت عينية على الجند في شكل، صلات، وكسى، أو خلع، تحفيزا لهم على الاستمرار في الخدمة، وقد أبدى بعض من حضر مجلس الخليفة المعز لدين الله تعجبه من كثرة ما ينفقه الخليفة على جنده، حتى أنه قال مستعظما : "وأين يبلغ يا أمير المؤمنين عطاء غيرك من عطائك؟، إن الذي يعطيه أعداؤك جندهم نزر عند عطائك لأوليائك إذا حصل لهم"[4]، وجدير بالذكر أن نشير هنا إلى قيمة المكافأة التي وعد ا القائم بأمر الله لمحمد بن خزر الزناتي نظير تمكن هذا الأخير من القبض على أبي يزيد اليفرني الزناتي، إذ قدرت بـ "عشرين حملا من المال"[5].

(1) الجوذري، المصدر السابق، ص43.
(2) ابن خلدون، العبر، ج6، ص154.
(3) النويري، اية الأرب، ج24، ص161، دائرة المعارف الإسلامية، لفظ "أشير"، ج2، ص235.
(4) القاضي النعمان، ا الس والمسايرات، ص531.
(5) ابن خلدون،نفس المصدر ، ص15.

*** التكفل بعائلا م بعد الوفاة:** وإذا حصل أن مات الجندي في المعركة أو أصيب بمكروه أثناء الخدمة، فإن الدولة تتكفل بالنفقة على عياله وأهله، وتحويل كل حقوق الجندي المتوفي إلى أفراد أسرته[1].

والملاحظ أن هذه الإجراءات العسكرية الاجتماعية، لا يزال يعمل ا إلى الآن في الأنظمة الحديثة، تحت ما يسمى بقانون تعويض الجنودد المتوفين أو المتضررين في الحروب.

---

(1) القاضي النعمان، المصدر السابق، نفس الصفحة، الجوزري، المصدر السابق، ص137.

•طبقـة التجـار:

إن من الطبيعي أن تحتل طبقة التجار مكانة مرموقة في مجتمع مثل مجتمع المغرب الإسلامي في العصر الفاطمي، ويأتي تصنيفها بعد الطبقة الحاكمة وطبقة الجند، لاسيما وأن مصالح هذين الأخيرين مرتبطة ا، رغم ما قد يحدث من توترات نتيجة لسياسة جبائية ثقيلة، أو لجوء بعض الحكام إلى مصادرة أموال التجار بوجه أو بآخر.

ويبدو أن الوضع الاجتماعي للتجار على عهد الفاطميين كان مريحا، وبخاصة إذا علمنا أن أبا عبد الله الشيعي قد منحهم الأمان، وأحسن استقبالهم في جملة وجوه القيروان لما دخلها سنة 296ﻫ/908م[1]، وإذا سلمنا بأهمية عامل الأمن والاستقرار في ازدهار حركة التجارة في أي بلد كان، فإننا نلمس أن أبا عبد الله الشيعي قد بادر إلى تحقيق هذين الشرطين الأساسيين منذ البداية، فقد أورد "القاضي النعمان" في هذا الصدد: "أن التجار يسافرون بالأموال الصامتة، والنعم الظاهرة.. فيبيت- التاجر- حيث أمسى، ويسير حيث أحب واشتهى، كأنما هو في بيته أو سوقه، يبيت آمنا، ويصبح سالما"[2].

ويظهر اهتمام الخلافة الفاطمية بتنظيم النشاط التجاري في بلاد المغرب الإسلامي باعتباره موردا هاما لنظام الجباية، ولتجمع الثروات، وتوفر عملة نقدية ذهبية ذات شأن، تساهم التجارة الكبرى بخاصة في تجميعها بأيدي التجار في المراكز التجارية النشطة، وقد وفرت الدولة لذلك كل الوسائل والإمكانات اللازمة أمام التجار لممارسة نشاطهم، بما في ذلك "تنظيم السوق"، والتي تشكل ا ال الحيوي الذي تدور حوله الحياة التجارية الاقتصادية، عن طريق تفعيل أداة تشرف بصورة مباشرة على شؤون السوق، لضمان تدفق الدخل، فكانت هذه الأداة هي وظيفة المحتسب[3]، فقد كان للمحتسب نواب يطوفون في

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج1، ص150.

(2) القاضي النعمان، الافتتاح، ص122.

(3) موسى لقبال، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي، ص39، أحمد مختار العبادي، الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، ص159.

الأسواق، يفتشون القدور واللحوم، وأعمال الطهاة، ويشرفون على السقائين، لضمان تغطيتهم القرب.."[1]، وقد تمنح لصاحب هذه الوظيفة صلاحيات أوسع من ذلك، قد تتعدى أحيانا إلى مراقبة أحوال العامة، حفاظا على الآداب العامة للمجتمع.

وقد عمل الفاطميون بدورهم على حماية المستهلك، من خلال تشديد الرقابة على عمل التجار، فكان في الغالب ما يصحب المحتسب طائفة من الجند مدججين بالسلاح، كي يساعدوه على أداء عمله على أكمل وجه، ومما جاء في هذا الصدد ما أورده "ابن حوقل" في وصف أسواق "بونة" أن "لها عامل قائم بنفسه، ومعه من البربر عسكر لا يزول كالرابطة"[2]، ونستنتج من خلال هذه الرواية، أن هؤلاء الجنود كانوا لا يفارقون المحتسب أثناء أدائه لمهمة مراقبة السوق، وهو ما يعكس حرص الفاطميين على الحفاظ على السير الحسن في الأسواق.

كما لا يمكن إلقاء المسؤولية دائما على عاتق الدولة في وجود بعض الظواهر غير الصحية، التي من شأ ا إعاقة حركة النشاط التجاري، أو الإضرار بالقدرة الشرائية للمستهلك، مثل انتشار ظاهرة احتكار السلع الأساسية من قبل بعض التجار، وخاصة في سنوات القحط أو الجدب، سعيا منهم وراء الربح السريع، حيث جاء في ترجمة الفقيه محمد بن اللباد (ت333هـ/944م)، قوله: "أدركت بالقيروان رجالا أملياء افتقروا، ما دخلوا فتنا، ولا أغرمهم سلطان مالا، ولكنهم اتجروا بالحنطة في أيام الشدائد.." [3]، وإذا كانت هذه الظاهرة قد ارتبطت بالقيروان، فهذا لا ينفي وجودها في مدن أخرى من بلاد المغرب الإسلامي.

---

[1] موسى لقبال، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي، ص39، أحمد مختار العبادي، الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، ص159.

[2] صورة الأرض، ص77.

[3] المالكي، رياض النفوس، ج2، ص292.

ومما جاء في بعض المصادر أن بلاد المغرب الإسلامي قد شهدت حركة اقتصادية نشيطة، لاسيما خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين[1]، فإن هذا مؤشر إيجابي على أن البلاد عرفت في المقابل حركة اجتماعية دؤوبة، لم تتأثر إلى حد كبير بجو الصراعات السياسية التي طبعت فترة الوجود الفاطمي.

لقد تمتع التجار في العصر الفاطمي بحرية نشاط كبيرة شجعت عناصر هامة بما في ذلك الأجانب على الولوج إلى بلاد المغرب الإسلامي، قادمين إليها من مناطق شتى، وبخاصة من الأندلس، وبلاد السودان، وحتى من أوربا، وقد لعب التجار اليهود دورا رئيسيا في انتعاش حركة المبادلات التجارية، وبخاصة بعد أن أحكموا سيطر م على أهم تجارتين في تلك الفترة، ويتعلق الأمر بتجارتي الذهب والرقيق[2]، وقد كانت الدولة الفاطمية تلزم هؤلاء اليهود بدفع ضريبة على متاجرهم، تعرف بضريبة الجوالي[3]، وذلك في مقابل السماح لهم بحرية النشاط التجاري، والتنقل على أراضيها[4].

ويبدو أن النشاط التجاري لم يكن مقصورا على التجار المحليين أو اليهود فحسب، بل إن هناك ما يدل على دور عناصر أندلسية لم يقل نشاطها عن التجار اليهود، حيث أصبحت هي الأخرى تمثل قوة بشرية و اقتصادية لا يستهان ا في بلاد المغرب الإسلامي، وقد ورد في بعض المصادر أن سنة 290-291هـ/902-903م، هي تاريخ ارتباط هذه العناصر الأندلسية ببلاد المغرب الإسلامي، وأن مدينة "تنس" تعد مما خلفه هؤلاء بالمنطقة على حد تعبيره[5].

---

(1) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ص184، الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامي، ص28،وما بعدها.

(2) انظر ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص20.

(3) ويقصد ا تلك الضرائب الموضوعة على الجماجم، حيث يقوم مباشر "الجوالي" بإلزام رئيس اليهود بكتابة رقاع، تحتوي على رواتبهم، ومن دخل منهم إلى أرض المسلمين، أو استجد من صغارهم، للمزيد أنظر، النويري، اية الأرب في فنون الأدب، ج8، ص242.

(4) ابن حوقل، الصورة، ص72.

(5) موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ص101.

وقد وقف "ابن حوقل"- كشاهد عيان- على أهمية النشاط الاقتصادي لمدينة "تنس"، إذ أورد في هذا الصدد: "وهي من أكبر المدن التي يتعدى إليها الأندلسيون بمراكبهم ويقصدو ا بمتاجرهم، وينهضون منها إلى ما سواها.."[1].

ويبدو أن الفاطميين اتبعوا سياسة اقتصادية اتسمت بالانفتاح أكثر على العالم الخارجي، حتى غدت عاصمة الخلافة "المهدية"[2] في تلك الفترة من أبرز المدن التي شهدت إقبالا واسعا للتجار الأجانب، الذين كانوا يقصدون إليها بتجارا م من مختلف المناطق سواء القريبة منها أو البعيدة، وهاذكر في هذا الصدد: "وهي مرفأ لسفن الإسكندرية والشام، وصقلية، والأندلس"[3].

ولا شك أن عبيد الله المهدي كان قد فكر في ظروف عمل وإقامة هؤلاء التجار الغرباء عن البلاد، لذا فقد أنشأ لهم فنادق خاصة لإيوائهم، وحمامات لراحتهم، بما في ذلك ملحقات ومرافق ضرورية، وقد حرص المهدي على أن تكون قريبة من مكان نشاطهم"[4]، ويكفي أن نعلم أن مدينة "صبرة" الفاطمية لوحدها توفرت على 300 حمام، أنشأت لهذا الغرض"[5]، كما يمكن أن نتخيل وجود كنائس وأديرة للرهبان اتخذت للعبادة، بالنسبة لغير المسلمين، ولاستقبال كل هذه الجاليات الكبيرة.

وقد نستدل على درجة الثراء التي بلغها تجار تلك الفترة، بالنص الذي ذكره "ابن حوقل" حيث أورد في هذا الشأن: "ولقد رأيت بأودغست صكا فيه حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست، وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار، ولا رأيت ولا

---

(1) ابن حوقل، الصورة، ص78.

(2) بنيت "المهدية" على يد الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي في سنة 303هـ، وفرغ من بنائها سنة 308هـ، وهي مدينة تطل على البحر، وقد جعلت أسواقها وفنادقها بضواحي المدينة، وكلها مبنية بالصخر، للمزيد أنظر عنها: البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص29، ابن حوقل، نفس المصدر، ص73، الإصطخري، المسالك والممالك، ص33، المقريزي، الاتعاظ، ج1، ص70، الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص85.

(3) البكري، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) التجاني، رحلة التجاني، ص329.

(5) الإدريسي، المغرب العربي، ص146.

سمعت لهذه الحكاية شبيها ولا نظيرا، ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخراسان فاستطرفت"[1]، ويمكن أن نستخلص من هذه الرواية الأخيرة أمرين بالغين في الأهمية، فالأمر الأول، درجة الرقي الاقتصادي التي بلغتها المعاملات التجارية في تلك الفترة، حيث أ ا كانت تتم بواسطة الصكوك الورقية، والأمر الثاني، هي القيمة المالية الكبيرة، التي تضمنها الصك، وهذا ما يحملنا على القول بأن صاحب هذا المبلغ المالي كان من التجار الأثرياء!.

وكما ذكرت في بعض كتب التراجم قصة مماثلة لتلك التي أوردها "ابن حوقل"، حيث جاء في ترجمة أبي عثمان سعيد بن الحداد (219-302هـ)- وكان ممن عاصروا الفاطميين- قوله: "قدمت من طرابلس، فكنت في رفقة فيها سبعون حملا بزا من صراف البصرة، وجميع ما في الرفقة من الجمال والأحمال والأعوان لرجل واحد، هو فيها معنا راكب على حمار محزم الوسط بمنطقة، وكان يستظل بظل محملي، يقال له أبو عوانة، فقال لي يوما: يا أبا عثمان ما يقول أصحابكم أصحاب الحديث في القناعة؟ يقولون: القناعة غنى، لأنه إن قنع بما في يديه استغنى عما في يد غيره، لكن أصحابنا يقولون: القناعة فقر، لأن من قنع لا يطلب، ومن لا يطلب لا يكسب، ومن لم يكسب فهو فقير، فسكت عنه ولم أكلمه، فدخل القيروان، وباع واشترى أحمالا ثلاثين، وكملها مائة، ثم توجه فلم أسمع له خبرا.."[2]، إن ما يمكن استنتاجه من هذه الرواية، هو أن التجار الأثرياء كانوا في العادة ممن يمارسون ميدان التجارة الكبرى، مثل تجارة الملح، والذهب، وحتى تجارة المرجان، و يبدو أن هذه الأخيرة كانت تدر على أصحا ا أموالا طائلة، انعكست على أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية، التي كانت أقرب إلى حياة الترف وا ون"[3]، ناهيك عن تلك الأرباح الكبيرة التي كانت تجنيها حاشية السلطان من تدخلها في التصرف مع التجار، ومزاحمتهم في الأسواق، مثل ما حدث على أيام الخليفة المنصور بالله، إلى درجة أن جوذرا كان يمنعهم من

---

[1] ابن حوقل، المصدر السابق، ص96.

[2] الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج2، ص212، 213.

[3]لقد ذكر ابن حوقل بعد وصفه لتجارة المرجان بنواحي مرسى الخرز فقال :والعاملون فيها يكثرون الاكل والشرب والخلاعة ولهم ا مكاسب وافرة ، انظر: صورة الأرض ، ص77.

ذلك ويزجرهم عنه"[1]، ولا غرو في ذلك، فقد كان جوذر الصقلبي نفسه تاجرا، وأحد المقربين إلى الخليفة الفاطمي[2].

وإذا كان هذا حال بعض التجار الأغنياء، فإ م مع ذلك لا يمثلون إلا فئة قليلة العدد، بحكم موقعها في قمة الهرم الاجتماعي، وكو ا صاحبة امتيازات وثروات طائلة، إذا ما قورنت بغيرها من التجار الصغار، وبخاصة تجار البوادي والأرياف المعزولة، الذين طالما اشتكوا من ثقل الضرائب المفروضة عليهم، فقد ورد في بعض المصادر "أن أهل البوادي أرغموا على بيع محاصيلهم في مدينة المهدية بأثمان زهيدة، وكان ذلك على عهد الخليفة عبيد الله المهدي"[3]، كما أدت سياسة النهب المنظم، والاعتداء على أموال التجار من قبل الجيش الفاطمي، إلى وقوع انتفاضات بين سكان المدن، كما حدث في مدينة "القيروان"، سنة 299هـ/911م[4]، وفي أطرابلس سنة بعد ذلك[5].

ومما يبرز البعد الاقتصادي لثورة أبي يزيد اليفرني الزناتي، هو أن من بين الفئات الاجتماعية التي انضوت تحت لوائها نجد "فئة التجار"، فقد أورد "المالكي"[6] في هذا الصدد: "وخرج جميع الفقهاء، ووجوه التجار إلى المصلى بالسلاح، والعدة العجيبة، التي لم ير مثلها..."، ولا غرو في ذلك ، فقد أصبح الجيش الفاطمي يمثل قوة يصعب أحيانا كبح جماحها.

وقد دبر الفاطميون في سنة 300هـ/912م، مكيدة لقتل أبرز التجار الأندلسيين بالقيروان وهو أبو جعفر محمد بن خيرون المعافري، وأخذوا أمواله"[7]، ويبدو أن التجار الأندلسيين بخاصة، كانوا أكثر العناصر تضررا من سياسة النهب والسلب التي اتبعتها السلطة

---

(1) الجوذري، سيرة الأستاذ جوذ ر، ص62.

(2) نفس المصدر، ص99.

(3) القاضي النعمان، ا الس والمسايرات، ص337.

(4) ابن عذاري، البيان، ج1، ص162.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج6، ص140.

(6) رياض النفوس، ج2، ص223.

(7) ابن عذاري، نفسه ، ص169.

الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، فقد جاء في ترجمة أبي جعفر القمودي (230-324هـ/845-935م) قوله: "قدم إخوان من تجار أهل الأندلس في مركب، فوقعوا في مدينة عبيد الله، فغصب متولي الموضع رحلهم، فطلبوا منه أن يرد شيئا منه فأبى.."[1]، وإن دلت هذه الرواية على شيء، فإنما تدل على دور "المراصد" التي أقامها الفاطميون على كل تجارة ترد إلى البلاد أو تخرج منها، حيث يلتزم كل تاجر دفع ضريبة معلومة، تكون قيمتها بحسب ما يحمله من رحل، وهي على ما يبدوأشبه بضريبة "الرسوم الجمركية"، أو "المكوس" في عصرنا.

وقصارى القول، إنه برغم السياسة المالية ا حفة التي طبقها الفاطميون في بلاد المغرب الإسلامي عموما، وما عاناه التجار بخاصة من جرائها، غير أن هذه الطبقة شكلت العمود الفقري لخلافتهم، فكان التجار عنصرا فعالا في ا تمع، فأثروا وتأثروا بما حولهم من أحداث، دون أن ينقطع نشاطهم الدؤوب، ولعل أصدق مثال على هذه الحقيقة، هو خروج المرأة إلى السوق، ومساهمتها إلى جانب الرجل في إنعاش التجارة"[2].

---

(1) المالكي،رياض النفوس ،ج2 ، ص223.

(2) المالكي ، نفس المصدر، ص50.

•طبقـة العامـة:

تأتي طبقة "العامة" في مقابل "طبقة الخاصة"، ويمثل أفرادها السواد الأعظم من الناس، لذا فإن تصنيفها يكون في أسفل الهرم الاجتماعي، وقد عرف "جرجي زيدان" "العامة" بقوله: "هم أخلاط من غوغاء ولفيف من أمم شتى، وصناعات شتى، وهم جهال، أتباع من سبق إليهم من غير تفضيل"[1]، وقد ترد "العامة"، ويقصد ا الطبقة التي تشمل النساء والصبيان والجهال"[2]، أما ما يعنينا في كل هذا هو: كيف كانت نظرة الفاطميين إلى هؤلاء؟!

لقد ارتبط مفهوم "العامة" في نظر الفاطميين بكل ما هو حقير ووضيع، فقد شبههم المعز لدين الله الفاطمي بـ "الحجرة التي لا رونق لها ولا جوهر، كمثل ما تبنى به الجدران، ويحمل عليه الجذوع، ويعمل منه القناطر.."[3]، كما وصفت في موضع آخر "بالحمير والجهال"، إذ أورد "القاضي النعمان"[4]، هذا الوصف على لسان المعز لدين الله نفسه: "وقد ابتلانا الله برعي الحمير الجهال، فإنا لم نزل نتلطف في هدايتهم ومسايرة أحوالهم، إلى أن يختم الله لنا بالحسنى، والخروج من بين أظهرهم على أحمد حال"، وعلى العموم فإن "طبقة العامة" يمكن أن تشمل جميع فئات ا تمع، والتي تتكون من: الزراع والفلاحين، وأصحاب المهن والصناعات، وصغار التجار، والعاطلين عن العمل، لذا فإننا نجد هؤلاء العوام أشد الناس ارتباطا بالسلطة الحاكمة، لعدم توفرهم على موارد مالية مستقرة، ومن هنا فإن من الضروري بحث أحوال هذه الطبقة في ظل الحكم الفاطمي لبلاد المغرب الإسلامي، لأن أفرادها- بطبيعة الحال- يؤلفون معظم الرعية، و م تجبى الأموال، ومنهم تتألف الجيوش...

وتجدر الإشارة إلى أن أحوال العامة قد ساءت في القيروان، وفي أغلب المناطق التي شملها حكم الأغالبة، نتيجة للسياسة الجبائية الثقيلة التي اتبعها أمراء هذه الدولة ضد ملاك

---

[1] تاريخ التمدن الإسلامي، ج2، ص569.
[2] رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، ج4، ص511.
[3] القاضي النعمان، ا الس والمسايرات، ص232.
[4] نفس المصدر ، ص396،وما بعدها.

الأراضي والفلاحين، والتجار، لاسيما خلال فترة حكم الأمير إبراهيم بن أحمد 261-289هـ/875-902م[1].

وقد استمرت أحوال العامة على هذا السوء والتدهور حتى سنة 296هـ/908م، فعمت الفوضى البلاد، وانتشر الفساد، وأماكن اللهو، وقد أسهم بعض حكام الأغالبة من المتأخرين في ذيوع الرذائل بين أوساط العامة، فأهملوا شؤون الحكم، وانكبوا على تناول المسكرات، وألوان البذخ وا ون، وقد استغل أبو عبد الله الشيعي هذه الاضطرابات الاجتماعية في دعايته، كي يؤلب قلوب العامة للثورة على حكم الأغالبة، ومما جاء في هذا الصدد: "واشتغل زيادة الله بلهوه، ولعبه، وأبو عبد الله يأخذ المدائن شيئا بعد شيء، عنوة وصلحا"[2].

ولم تركن العامة إلى الهدوء، إلا بعد أن إستوسق حكم الداعي على رقادة، معلنا أمامها، النهوض بإصلاحات اجتماعية واقتصادية لصالحها، مستهلا أعماله، بمحاربة الفساد، وقطع الملاهي في البلاد، فكان تصرفه هذا سببا في التفاف العامة حوله، وفي هذا الصدد أورد "القاضي النعمان": "وأخرج العمال إلى البلدان، ونادى فيها بالأمان، وبطلب أهل الدعارة والفساد، فأنكاهم عقوبة، فسكنت "الدهماء"، وامنت السبل"[3]، ونستنتج مما سبق، أن العامة، كانت تتحين الفرصة المواتية للانقضاض على ملك الأغالبة، الذين تسببوا في ب ثروا ا، واستصفاء أموالها، دون وجه حق؛ ولعل ما يبرر ذلك، ما ذكره "النويري" في هذا الصدد: "ولما علم الناس روب زيادة الله، أسرعوا إلى رقادة، وانتهبوا ما فيها، واحتووا على

---

(1) هو تاسع أمراء البيت الأغلبي، وأطولهم حكما، وكان رجلا غريب الأطوار، اتسم حكمه بالاضطراب، فقد وظف الضرائب، والقبالات على الفلاحين وأصحاب الأراضي، ثم لما كانت سنة 289هـ/902م، وابتدأت الدولة الفاطمية تأكل أطراف إمارته، عاد ليسقط الضرائب مرة أخرى، وأراد بذلك إرضاء العامة واستمالة الخاصة، ابن عذارى، البيان، ج1، ص131، حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، ج1، ص286.

(2) المقريزي، الاتعاظ ، ج1، ص62.

(3) القاضي النعمان، الافتتاح، ص246.

قصور زيادة الله، حتى صاروا في البحث عن المطامير، وانتزاع حديد الأبواب، وحمل الأسرة، ونقل الماعون، وأقاموا على ذلك ستة أيام"[1].

ولا شك أن أبا عبد الله الشيعي قد راعى جانب "العامة" بتصرفه، حينما أمر أصحاب الخراج، بالتزام الكتاب والسنة في جمع الأموال من الناس، لذا نجد أن سياسته هذه في جباية الأموال، تركت انطباعا طيبا بين أهالي طبنة بخاصة، وسكان إفريقية، فسروا لذلك، ورجوا الدخول في طاعته"[2]. لما نالهم من الجور والأذى في أموالهم وأراضيهم، التي تعد مصدر رزقهم، ونستخلص أن الداعي أدرك بحنكته وذكائه، كيف يستميل إليه قلوب العامة، مستفيدا من مواطن ضعف الحكم الأغلبي، ثم سرعان ما ابتدأ يمني الناس بظهور "المهدي" الذي سيملأ الأرض عدلا، بعد أن ملئت ظلما وجورا، حتى تطلعت نفوسهم شوقا لانتظار هذا اليوم الموعود"[3].

وما إن حل عبيد الله المهدي بالقيروان سنة 296هـ/908م، حتى هب أهلها لاستقباله، وكان بينهم فقهاء، ووجوه، وتجار"[4]، معلقين آمالا كبيرة في شخص الخليفة الفاطمي.

ويبدو أن حادثة مقتل الداعي أبي عبد الله الشيعي وخيرة رجال كتامة على يد الخليفة عبيد الله المهدي في سنة 298هـ/910م[5]، قد أثرت أيما تأثير في نفسيات عامة كتامة، فأصبحوا يشككون في "مهدوية" عبيد الله، ولم تستوعب ذهنيا م منه هذا التصرف، وهذا ما جعلهم ينتفضون ضد حكمه، بل وأقاموا مكانه طفلا، معتقدين- لسذاجة تفكيرهم- أنه هو "المهدي"، الذي بشر به الداعي أبو عبد الله[6].

---

(1) اية الأرب، ج24، ص148.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ص142.

(3) القاضي النعمان،نفس المصدر ، ص271، 272.

Bel (A): La religion musulmane en berbérié Tome I, Paris (L.P.G) 1938, p.153.

(4) ابن عذاري، نفس المصدر، ص149.

(5) أبي الفدا، المختصر في تاريخ البشر، ج2، ص66.

(6) المقريزي، الاتعاظ،ج1، ص68.

وكان من البديهي بعد أن خابت آمال "العامة" في عدل الخليفة عبيد الله المهدي، أن لا تنقاد لدعوته، ومن هنا أمر هذا الأخير دعاته بالكف عن طلب التشيع بينها[1]، وكأن الخليفة بات يدرك أن الاستمرار في نشر المذهب الإسماعيلي في مثل هذه الظروف- لا محالة- سيؤدي إلى الفشل، أو ربما لن تقوم له بعد ذلك قائمة.

والظاهر أن سوء اختيار الخليفة عبيد الله المهدي لبعض عماله على الأقاليم، كان سببا في ثورة العامة عليه، مثل ما حدث في مدينة أطرابلس سنة 300هـ/912م، حينما جعل ماكنون بن ضبارة الإيكجاني واليا عليها، فبسط أيدي بني عمه على أموال الناس، فانتهبوا دكاكينهم، واعتدوا على حرما م[2]، وقد كان أمام الخليفة فرصة لإصلاح هذا الخطأ الإداري عن طريق عزل الوالي أو استبداله، لكنه تجاهل مطالب العامة، وأرسل جيشا كثيفا لمحاصرة المدينة، وأغرم أهلها ثلاثمائة ألف وأربعين ألف دينار[3].

ومما يقيم الدليل على اشتداد الخليفة عبيد الله المهدي على العامة، وتسخيرها للخدمة، هو أنه حينما انتقل مع أهله لسكنى المهدية، جعلها على قسمين منفصلين عن بعضهما انفصالا تاما، فالأولى- المهدية- ابتنى فيها القصور ودورا لآل بيته ورجال دولته، وجنده، أما الثانية- زويلة- وهي على رمية سهم من الأولى، اتخذها سكنى للعامة، رتب فيها الدكاكين والأسواق، فكانوا يدخلون إليها للمعيشة، ويخرجون بالليل إلى أهاليهم، فقيل للمهدي، إن رعيتك في عناء من هذا، فقال؛ لكن أنا في راحة، لأني بالليل أفرق بينهم وبين أموالهم، وبالنهار أفرق بينهم وبين أهاليهم"[4]، غير أن معنى كلام المهدي ، يكتنفه بعض الغموض، هل قصد من ورائه: "أنه لا يأمن اتصال عامة المهدية بحركة أبي يزيد الثائر على حكمه، أم أنه يخشى من العامة استئثارها بالأموال التي تكسبها من العمل!. ولاشك أن

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص135.

(2) انظر ابن عذاري، المصدر السابق، ص168،.

(3) ابن أبي دينار، المؤنس، ص53، وقد ذكر التجاني أن قيمة هذا المبلغ "أربعمائة ألف دينار"، أنظر، رحلته، ص240.

(4) ياقوت الحموي، ج3، ص160.

الأمر لا يخلو من تمييز طبقي اجتماعي، أي أن "العامة" في نظر المهدي تظل فئة دنيا لا ترقى أن تكون على اختلاط بأهله أو جنده.

ويندرج تحت طبقة العامة أيضا فئة الفلاحين وأصحاب الأراضي، وبما أن خدمة الأرض هي أساس كسب هؤلاء[1]، فإن ثقل الضرائب التي فرضها الفاطميون، على الفلاحين، وخاصة على أيام عبيد الله المهدي، كانت سببا في تدهور أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية، فقد أورد "ابن عذاري" في هذا الصدد: "أنه في سنة 303هـ/915م، ولى عبيد الله بإفريقية الخراج أبا معمر عمران بن أحمد ابن عبد الله بن أبي محرز القاضي، فتولى بوظيف التقسيط على ضياع إفريقية، بعد أن وزع جميعها، ونظر إلى أوفر مال ارتفع من العشور في سنة وأقله، ثم جمع المالين، ووظف الشطر على كل ضيعة"[2]، ثم فرضوا "التضييع" سنة 305هـ/917م، وقد زاد الأمر سوءا الجور الشامل من الشيعة، والتعلل على أموال الناس من كل جهة"[3]، أي فرضوا ضرائب جديدة تحت أسماء، وذرائع متنوعة، فيكون هؤلاء قد اشتطوا في عملية جمع الأموال من مصادرها الشرعية وغير الشرعية، دون مراعاة لأحوال الناس المالية، حيث ارتفعت الأسعار بشكل واضح في الأسواق على عهدهم، ولم يتمكن الباعة من تسديد ما عليهم من ضرائب، وغيرها من المغارم[4]، وإذا كانت الضريبة التي تفرضها الدولة على الفلاح باهضة، فمن الطبيعي أن يلجأ هذا الأخير للزيادة في سعر المنتوج، كي يضمن الحد الأدنى من الربح. وبالتالي فإن عبء هذه الزيادة يستعملها المستهلك، فيقع عليه الضرر تباعا، ولهذا فمن المحتمل أن فئة الفلاحين وأصحاب الأراضي- بوجه عام- ضمن الفئات الاجتماعية، التي انضوت تحت حركة أبي يزيد الزناتي ضد الحكم الفاطمي، لسبب الضرائب الباهضة الملقاة على عاتقهم، إذ أن حركته هذه إنما قامت في

---

(1) الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامي، ص82.

(2) ابن عذاري، البيان،ج1، ص173.

(3)ابن عداري ،المصدر السابق، ص181.

(4) Marsais (G), la berbérie musulmane et l'orient au moyen âge. édition montagne, Paris. 1946, p:144.

الأساس احتجاجا على جباة الأموال[1]، أي أ ا في جوهرها اقتصادية اجتماعية، أكثر منها مذهبية، ولا غرو في ذلك- فقد كان أنصارها- يتألفون من سكان البوادي، المقيمين بجبال الأوراس، وجبال بني برزال قبلة المسيلة، والمناطق المعزولة[2]، والذين على ما يبدو لا تربطهم بسلطة الفاطميين أي صلة، وإنما كان قوام حيا م يعتمد بالدرجة الأولى على فلاحة الأرض، ورعي الماشية[3]، ولنا أن نتخيل متاعب هؤلاء مما يقاسونه في الحياة، على عكس ما كان يحياه أفراد الطبقة الحاكمة- كما سبق وأن أسلفنا-.

وعلى الرغم من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية، التي أعلن عنها الخليفة المنصور بالله لصالح الرعية، مثل إقدامه في سنة 330هـ/941م، على ختان ألف صبي من أبناء القيروان[4]، وإعفاء الرعية من الجباية لسنة 335هـ/946م، كي يساعدها على تعمير أراضيها، وممارسة نشاطها الفلاحي[5]، إلا أن هذه الإصلاحات، لا تعدو أن تكون محاولة منه لذر الرماد في أعين العامة، حتى لا تعود للثورة على الحكم، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أبعد من ذلك، حيث اعتبر: "أن إلغاء الضرائب لعام واحد، إجراء لا يوحي مطلقا بتغير في ثوابت الدولة، إنما هو تعامل بذكاء، كي يتمكن الخليفة من بلوغ أهدافه"[6]، ومعنى هذا هذا الكلام أن إجراءات المنصور بالله كان الغرض منها سياسي.

وقد نجد ضمن هذه الطبقة، فئة الفقراء والمساكين، وهي بلا شك- تمثل الجزء الأكبر في ا تمع الفاطمي، إذ أن ظروف الحرب التي شهد ا بلاد المغرب الإسلامي كان لها الأثر المباشر في زيادة نسبة هذه الفئة في ا تمع، نتيجة لأعمال السلب والنهب التي استهدفت

---

(1) القاضي النعمان، ا الس والمسايرات، ص336.

(2) ابن خلدون، العبر، ج7، ص15، ابن الأثير، الكامل،ج6، ص310.

(3) ارجع في ذلك إلى: ابن حوقل، الصورة ، ص85، 86، الإدريسي،المغرب العربي ، ص108.

(4) ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسير م، ص47.

(5) الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين ، ج5، ص195.

(6)انظر بوبة مجاني، دراسات إسماعيلية، ص131.

أموالها وممتلكا ا، فافتقرت وأعدمت أقوا ا، ولا غرو- إن لجأ بعض أفاد هذه الفئة إلى أكل جلود الحيوانات وأنطاعها"[1].

ولا يعني هذا أن أحوالها قبل ذلك كانت أحسن، قبل مجيء الفاطميين، أي في فترة حكم الأغالبة أو الرستميين مثلا، إذ تطالعنا بعض المصادر: "أن الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد، كان قد أعطى فقهاء القيروان، ووجوه أهلها أموالا عظيمة، ليفرقوها في الضعفاء والمساكين فاستؤكلت، وأعطيت لمن لا يستحقها، وصرفت في الشهوات"[2]، بل إن عامة أهالي مدينة "تاهرت" حاضرة الرستميين، كانوا على عهد "ابن حوقل" فقراء بسبب الحروب، وتوالي القحوط عليهم"[3].

وقد كان هؤلاء الفقراء يلبسون الخشن من الثياب، ويمكن أن نتخيلها مرقعة، أو رثة، تنم عن فقر صاحبها-وربما تساوي في لبسها الجاهل والعالم، فقد جاء في بعض المصادر أن جبلة بن حمود (ت297هـ/909م)، دخل على سحنون يوما، وعليه أخلاق- أسمال بالية- فجلس، فلما فرغ من السماع، قام ليخرج فقال له سحنون: اجلس، فجلس، فلما خرج الناس، ولم يبق عنده أحد غير جبلة، أخرج إليه شقة ورداء، وقال له: قطع لك من هذه قميصين، وألبس هذا الرداء"[4]، ونستنتج من خلال هذه الرواية، أهمية الصدقات والهبات التي كان يتقدم ا بعض المحسنين لفائدة هذه الفئة المحرومة في ا تمع.

ولا يقل الفاطميون عن سابقيهم في سعيهم لتقديم الصدقات إلى هؤلاء، فقد أمر الخليفة المنصور بالله بإخراج الصدقات إلى فقراء سوسة، اشتملت على مراكب مشحونة

---

(1) الداعي إدريس، المصدر السابق، ص145.

(2) ابن عذاري، البيان،ج1، ص132.

(3) ابن حوقل، الصورة، ص181.

(4) المالكي، رياض النفوس، ج2، ص30.

بالطعام، لما حل م من الجوع، وكان ذلك بعد انتصاره على ثورة أبي يزيد[1] وكذلك فعل مع فقراء مدينة المهدية[2].

هذا ويمكن إدماج فئة اللصوص وقطاع الطرف ضمن طبقة العامة، لأ ا فئة اجتماعية تمردت على واقعها المر، فبدأت تتبع أسلوبا حادا في كسب قو ا اليومي، فاجتمعت في فئات لتكون أقدر، ومهما يكن فإن هذه الفئة لم تكن تعتبر أن احتراف مهنة اللصوصية جريمة، بل هي في تصورها مهنة للارتزاق، وربما حملت على عاتقها مهمة تطبيق الشرع في أموال الأغنياء، طالما ظل هؤلاء الأغنياء في نظرها يمنعون الصدقات، التي أمرهم الله بدفعها إلى الفقراء.

وقد شكلت هذه الفئة خطرا كبيرا على عهد الفاطميين، فأصبحت تعترض سبيل التجار، وأصحاب الأموال، وحتى القضاة لم يفلتوا من قبضتها، فقد توفي أبو العباس إسحاق بن إبراهيم، قاضي طرابلس مقتولا، على أيدي مجموعة من اللصوص، وانتهبوا ماله وكان ذلك سنة 303هـ/915م"[3].

ويبدو أن خطر هذه الفئة أخذ يتفاقم خاصة على عهد الخليفة المنصور بالله، فأصبحت تعترض طريق قوافل الخليفة نفسه، وتنتهب كل ما تحمله من آنية أو متاع[4]، وقد استمر خطر اللصوص حتى على أيام الخليفة المعز لدين الله، رغم الهدوء النسبي الذي طبع البلاد في فترة حكمه، ولهذا فقد اتخذ المعز إجراءات ردعية للتقليل من خطر هؤلاء، بأن أعطى الأوامر بمنع الناس من الخروج ليلا، بعد أداء صلاة العشاء، وتوعد المخالفين بضرب اعناقهم ، وقد كان لا يخرج حينئذ إلا من يسرق[5].

---

(1) الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء،ج5، ص158.
(2) الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، ص51.
(3) الدباغ، معالم الإيمان، ج2، ص228.
(4) الجوذري،نفس المصدر ، ص69.
(5) المالكي،رياض النفوس،ج2 ، ص487.

وقصارى القول، أن العامة بحكم جهلها، وبساطة الحياة التي كانت تحياها، فقد تعرضت أملاكها لكل أشكال الظلم والابتزاز، بل إ ا وقعت ضحية لوعود السلطة الفاطمية، التي لم تحرك ساكنا لتحسين أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية.

•طبقـة العبيـد:

لقد شكل العبيد على اختلاف أجناسهم وألوا م شريحة كبيرة داخل النسيج الاجتماعي للمغرب الإسلامي، وفي عهد الفاطميين أيضا، وقد أصبح تأثيرهم ملحوظا، لاسيما في ا ال الإداري والعسكري ، كما في باقي ا الات الأخرى بصورة أشمل، هذا فضلا عن الوظائف الأساسية المنوطة م، كالخدمة في قصور الخلفاء والأمراء، وما يتعلق بالأعمال الم لية وغيرها.

وتجدر الإشارة في هذا المقام، إلى أن اتخاذ العبيد وتسخيرهم في الخدمة، لم يكن مقصورا على الفاطميين فحسب، بل إن الأمر أصبح تقليدا شائعا في اغلب الدول الإسلامية، لاسيما لدى حكام المغرب الإسلامي ابتداء من القرن الثاني الهجري/التاسع الميلادي، فقد اتخذ إبراهيم بن الأغلب (184هـ/800م) مؤسس الإمارة الأغلبية بالقيروان حرسه الشخصي من أفراد هذه الطبقة، إذ كان من بينها من كان يحمل عنه السلاح"[1]، ولا غرو إن أصبح عدد العبيد يتضاعف شيئا فشيء بعد ذلك، إذ كان للموقع الجغرافي الخاص لبلاد المغرب الإسلامي، الأثر البالغ في تطور المسالك التجارية جنوبا- شمالا، غربا وشرقا، وفي ازدهار تجارة الرقيق والذهب بخاصة، ومما ورد في هذا الصدد: إنه عن طريق التبادل التجاري بين المغرب وبلاد السودان، سيتدفق الذهب والعبيد السود في اتجاه البحر المتوسط والمشرق.."[2].

وتجدر الإشارة إلى إسهام اليهود أيما إسهام في ترويج هاتين التجارتين، في شمال إفريقية، وباقي مناطق العالم الخارجي، لاسيما خلال القرن الرابع الهجري/الحادي عشر ميلادي"[3].

---

[1] الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، ص187.

[2] موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ص86.

[3] آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ص217.

وإن كانت المصادر- التي بين أيدينا- لم تقدم إحصائيات حول العدد الإجمالي للعبيد الذين رافقوا عبيد الله المهدي قبل إعلان خلافته، غير أن ما ورثه الفاطميون من عبيد الأغالبة بعد ا يار إمار م سنة 296هـ/908م، يوحي إلى كثر م، الأمر الذي حذا بعبيد الله المهدي إلى إفراد ديوان خاص م للنظر في شؤو م، وترتيب أرزاقهم، سمي بديوان العطاء"[1].

وقد قدرت بعض المصادر عدد العبيد الذين اتخذهم عبيد الله المهدي في بداية خلافته، ما بين رومي وسوداني فبلغ حوالي اثني عشر ألفا"[2]، بالإضافة إلى ذلك ، تلك الأعداد الهائلة من السبايا، التي كانت تعود ا الجيوش الفاطمية من غزوا ا ضد بلاد الروم وصقلية، حيث بلغ عدد ما سبوه في غزوة واحدة حوالي عشرة آلاف سبية، وكان ذلك على أيام الخليفة عبيد الله المهدي"[3]، وبالتالي فإن هذا الرقم مهم، وإن دل على شيء، فإنما يدل على قوة الجيش الفاطمي، وتمرسه في القتال.

وقد قسمنا طبقة العبيد إلى ثلاثة أجناس رئيسية، وهذا بحسب أولوية كل منها لدى السلطة وهم كالآتي: صقالبة، سودان، روم.

أما الصقالبة، فيبدو أ م كانوا أوفر حظا من حيث النفوذ، وهذا راجع ربما إلى كثر م من جهة، ومن جهة أخرى قدر م على الارتقاء في المناصب المختلفة، مع حسن أدائهم للوظائف الموكلة إليهم، كو م شاركوا ضمن الجيش الفاطمي، وبرهنوا على براعتهم في القتال، والاستماتة فيه، فكانوا موضع ثقة الخلفاء الفاطميين، حيث برز من بينهم قواد عظام، مثل ميسور الصقلبي، الذي تولى القيادة العامة للجيش الفاطمي وذلك على أيام الخليفة القائم بأمر الله، حتى انه سمي بصاحب الجيش الأعظم"[4]، وهي نفس المكانة التي

---

[1] القاضي النعمان، الافتتاح، ص304.

[2] لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ج3، ص51.

[3] ابن عذاري، البيان، ج1، ص190، الداعي إدريس القرشي، تاريخ الخلفاء ، ص71.

[4] الداعي إدريس القرشي، المصدر السابق، ص85.

حظي ا كل من قيصر ومظفر الصقليان، وفي هذا الصدد أورد "المقريزي"[1]: "وكان قيصر ومظفر الصقلبيان قد بلغا رتبة عظيمة عند المنصور والمعز..".

ويبدو أن دور الصقالبة لم يقتصر على قيادة الجيوش الفاطمية، بل عملوا أيضا في مجال الإدارة، والشؤون المالية، وغيرها من المصالح الهامة في الدولة، ولنترك جوذر يتحدث عن هذه الوظائف فيقول: "ولما نقل الله الإمام المهدي بالله إلى دار كرامته، ومحل رحمته، وأفضى بالأمر بعده إلى حجته، الإمام القائم بأمر الله.. صرف إلي النظر في بيت المال وخزائن البز والكساء، وجعلني سفيرا بينه، وبين أوليائه، وسائر عبيده"[2].

وأما العبيد السود[3]، ورغم كو م لم يبلغوا من المكانة والنفوذ ما بلغه الصقالبة، إلا أ م تمكنوا من الوصول إلى وظائف إدارية وعسكرية سامية، مثل صندل الفتى الأسود، الذي كان يقود فرقة العبيد السود ضمن الجيش الفاطمي، لقمع تمرد قبيلة كتامة ضد الخليفة عبيد الله المهدي، بعد مقتل أبي عبد الله الشيعي، وصندلا هذا كان قد اشتراه عبيد الله المهدي من سجلماسة"[4].

وقد سبقت الإشارة، إلى أن وظيفة العبيد السود ظلت تتأرجح بين حراسة القصور، ومرافقه مواكب الخلفاء والأمراء أثناء تنقلا م"[5]، وربما اختصت طائفة منهم بإحاطة الخليفة أثناء جلوسه لتناول الطعام، لتقديم ما يحتاج إليه، حسب إشارة الجو ذري[6].

أما ما يتعلق بدور العبيد "الروم"، فيبدو أن مهامهم الرئيسية كانت لا تختلف عن مهام العبيد السود، بالإضافة إلى ذلك، أداؤهم لوظائف أخرى، تتمثل في صناعة مختلف الأسلحة،

[1] الإتعاظ، ج1، ص101.
[2] الجو ذري، سيرة الأستاذ جوذر، ص39.
[3] وهم "السودان" الذين كان يؤتى م من بلاد النوبة والحبشة والزغاوة، وغيرها من المناطق، عن طريق التجارة،انظر ابن النديم، الفهرست، ص33، ابن حوقل، الصورة ، ص55.
[4] اليماني، سيرة الحاجب جعفر، ص122.
[5] القاضي النعمان، الافتتاح، ص303.
[6] سيرة الأستاذ جوذر، ص146.

والآلات العسكرية، التي يستخدمها الجيش الفاطمي في حروبه، وأيضا حذقهم في صناعة الثياب الأميرية، أو ما يسمى "بعمل الطراز"، حيث يختص صاحب هذه الصناعة بأمور الصباغ، والآلة والحاكة.." [1]، وقد ورد في بعض المصادر، ما يدل على مدى إعجاب الخليفة المعز لدين الله بما ينجزه عبيده الروم في هذا الميدان"[2].

ولا شك أن العبيد كانوا اليد العاملة والفنية التي عول عليها الفاطميون لتشييد أغلب المدن والقرى التي أنشئوها في بلاد المغرب الإسلامي، على غرار مدينة "المهدية" والمسيلة، والمنصورية، وأشير، وأيضا قرية "قلمجنة"[3]، ولعل خير دليل على ما ذهبنا إليه، هما العمودان الأحمران اللذان نقلهما المعز لدي الله من سوسة إلى المنصورية، حيث كانا من الثقل بمكان، الأمر الذي أعجز الأولين عن تحريكهما من مكا ما، غير أن المعز، تمكن من نقلهما وتوظيفهما في بناء المنصورية ،وذلك بفضل سواعد هؤلاء العبيد المماليك"[4].

وإذا ما أتيح لنا أن نعلم وفرة الجواري في قصور رقاده والمهدية والمنصورية، مثل: "قضيب"، و"مشتاق"، و"سلاف"، وغيرهن من الأسماء، جزمنا بلا ريب، ما كان يوجد بين جدرا ا من فنانين ومغنين، وأرباب آلات الطرب، وموائد للأكل، وأخرى للشراب، وما إلى ذلك من مجالس الأنس وا ون"[5].

وإن كنا قد وقفنا على أن استخدام العبيد في عهد الفاطميين قد تركز بشكل ملحوظ على تدعيم الجيوش وأعمال الحراسة، أوالخدمة في قصور الخلفاء، فهذا لا يعني مطلقا أن منازل عامة الناس كانت خلوا من أفراد هذه الطبقة، فقد ورد في بعض المصادر أن أبا جعفر

---

[1] ابن خلدون، المقدمة ، ص817.

[2] القاضي النعمان، ا الس والمسايرات، ص197.

[3] وهي إحدى القرى القريبة من جبل زغوان بتونس، قام ببنائها الخليفة القائم بأمر الله، واتخذها مدينة يأوي إليها الغريب والسائل، البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص46.

[4] القاضي النعمان، نفس المصدر ، ص334.

[5] المالكي، رياض النفوس، ج2، ص359 وما بعدها.

القمودي- الرجل المتعبد- "كانت لديه جارية في الم ل تقوم على خدمته ورعاية شؤونه، لاسيما ،أن هذا الأخير كان قد افتقد زوجته وولديه"[1].

وقصارى القول، يتضح لنا، تعدد أدوار طبقة العبيد في مجتمع المغرب الإسلامي على عهد الفاطميين،والتي شملت كل الميادين ومجالات الحياة، من إدارية وعسكرية واجتماعية، وغيرها، وقد كان الاعتماد على هذه الطبقة بحسب الحاجة إليها.

(1) المالكي ،المصدر السابق، ص217.

•طبقة أهل الذمة:

لقد عاش أهل الذمة من اليهود والنصارى في ظل السيادة الفاطمية، وتأثروا بجو الأحداث السائد في ا تمع، كما كان لهم نصيب وافر في النشاط الاقتصادي والحضاري، باعتبارهم جزءا لا يتجزأ من مجتمع المغرب الإسلامي، يتأثرون بالأحداث الجارية، ويخضعون لنفس الظواهر التي خضع لها ا تمع في تلك الفترة.

لا شك أن أهل الذمة من اليهود والنصارى، شكلوا جاليات ضمن سكان المغرب الإسلامي، فقد ورد في كتب بعض الجغرافيين أن بيوت اليهود كانت تجاور بيوت المسلمين والنصارى، وإذا كان من الصعوبة بمكان تحديد مناطق تواجد هذه الجاليات من البلاد، وغياب إحصائيات دقيقة حول عددهم، فإننا نكتفي بما ورد من إشارات في بعض المصادر، ولعل من أبرز المدن التي شهدت حضورا واسعا لجاليات يهودية ونصرانية، نذكر منها على سبيل المثال لا لحصر، مدينة أطرابلس[1]، ومدينة قابس[2]، وفاس[3]، وتاهرت[4]، والقيروان[5]، وقد كانت الدولة تقوم بحمايتهم بصفتهم معاهدين، فالمسلمون، والذميون في نظر الإسلام رعية واحدة، لدولة واحدة، تتمتع بحقوق واحدة، وتنتفع بمصالح الدولة العامة[6].

وقد استغرب متز من حالة الأمن والاستقرار التي نعم ا أهل الذمة إبان الحكم الفاطمي، إذ أورد في هذا الصدد: "وقد أظهر خلفاء الفاطميين الأولون لأهل الذمة تسامحا نعجب له، إذ لا ينتظر ذلك من قوم مثلهم"[7].

---

(1) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص9.

(2) ابن حوقل، الصورة ، ص72.

(3) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص230.

(4) الجنحاني، المغرب الإسلامي، ص113.

(5) نفسه، ص55.

(6) صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص363.

(7) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، ج1، ص81.

والظاهر هذه الظروف الأمنية المستقرة، شجعت أعدادا كبيرة من اليهود وبخاصة منهم التجار على الهجرة إلى بلاد المغرب الإسلامي، ولأن نشاطهم يعود على الدولة والخزينة بالفائدة، فقد فرض عليهم الفاطميون ضريبة مقابل السماح لهم بالنشاط التجاري، وحرية الانتقال بين مدن المغرب الإسلامي بما لديهم من التجارة، وهذه الضريبة أشبه- في عصرنا- بضريبة المرور أو "الرسوم الجمركية"، والتي كانت تسمى على عهد الفاطميين بالجوالي"[1].

أما بالنسبة لأهل الذمة الذين يتمتعون بحقوق المواطنة- حسب التعبير الحالي- ويفضلون البقاء على دينهم، وممارسة شعائرهم الدينية، فإ م يلتزمون بدفع ضريبة "الجزية" في كل سنة إلى بيت المال الفاطمي، ومما جاء في هذا الصدد، "أن أبا عبد الله الشيعي سأل المتولي الذي أتاه بمال الخراج، فقال له: "من أين هذا المال؟"، قال: "جبيته من اليهود والنصارى جزية عن حول مضى لهم"[2]، أما ما يتعلق بأحكام دفع هذه القيمة المالية، فتكون بحسب حال الذمي من غنى أو فقر، فالغني يدفع ثمانية وأربعين درهما، ومتوسط الحال أربعة وعشرين درهما، أما الفقير فيدفع اثني عشر درهما، حسب ابن عذاري"[3].

والملاحظ أن "الجزية" قد تسقط عن أهل الذمة من اليهود والنصارى، بمجرد دخول هؤلاء في الإسلام، لأ م بذلك يدخلون في جملة المسلمين، فيتساوون معهم في الحقوق والواجبات، وتسري عليهم الأحكام والحدود كما تسري على المسلمين، فإن حدث وأن أسلم الذمي ثم عاد إلى دينه، فحكمه في ذلك حكم المرتد عن دينه، وفق نصوص الشريعة الإسلامية، إذ يستتاب ثلاثة أيام، فإن أصر على ذلك قتل، وقد حدثت مثل هذه الظاهرة على أيام الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، مع قوم من النصارى كانوا قد أسلموا ثم ارتدوا عن إسلامهم، فرفع المعز لدين الله رقعة إلى جوذرا جاء فيها: "يا جوذر! أسعدك الله، أكتب إلى نصير بأن يقبض على هؤلاء المرتدين، ويسجنهم ويضر م، ويشهد عليهم العدول، فإن رجعوا على الإسلام أشهد عليهم وأطلقهم، وإن أقاموا على النصرانية جدد الإعذار إليهم،

---

[1] ابن حوقل، الصورة ، ص72.وانظر هامش ص 67 من البحث.
[2] ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص141.
[3] نفس المصدر و نفس الصفحة.

والإنذار لهم مرات في أيام مختلفة، فإن عادوا إلى غيهم، أخرجهم وقطعهم إربا إربا على أعين الناس أجمعين، ليكون شنعة لغيرهم"[1].

وعلى الرغم من فترات الهدوء التي شعر ا أهل الذمة في كنف الفاطميين، إلا أن الحروب والاضطرابات التي شهد ا بلاد المغرب الإسلامي على عهدهم، أثرت سلبا على أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية شا م في ذلك مثل غيرهم من السكان، إذ تعرضت ممتلكا م وأموالهم إلى السلب والنهب، كما خربت مساكنهم، وقد تكون الأضرار بالنسبة لهم أكبر، خاصة إن كانوا ممن يقيم في البوادي، وبعض المناطق المعزولة، فعندها تكون السلطة عاجزة عن حمايتهم، فيصيرون لقمة سائغة لمحترفي اللصوصية وقطاع الطرق[2].

ومهما يكن من الأمر فقد تمكن بعض اليهود من النفوذ إلى بلاط الخلفاء الفاطميين- كما سبق وأن ذكرنا- مثل الطبيب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي، الذي اهتم بتطبيب عبيد الله المهدي ، وقد سمح له قربه من السلطان إلى التفرغ للتأليف والكتابة، حيث وضع أمهات الكتب في الأغذية والأدوية والفلسفة والمنطق، قال عنها ابن جلجل[3]: "إنه لم يسبقه إليها أحد".كما تمكنت بعض العناصر النصرانية من الدخول في خدمة الخليفة عبيد الله المهدي والعمل في بلاط قصره بالمهدية، مثل أم علي القهرمانة، التي كانت تتولى إعداد مائدة الطعام للمهدي"[4].

وخلاصة القول، فإن الأوضاع الاجتماعية لأهل الذمة كانت في تحسن في ظل حكم الفاطميين لبلاد المغرب الإسلامي، بدليل تمكنهم من ممارسة نشاطهم التجاري، وإبتناهم الكنائس والأديرة، بل استطاع بعضهم الولوج إلى قصور الخلفاء أنفسهم، واشتغالهم في وظائف مختلفة كالطب، والطبخ وغيرهما.

★ ★ ★

---

(1) الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، ص126.

(2) أنظر، ابن حوقل، الصورة ، ص73.

(3) طبقات الأطباء والحكماء، ص87.

(4) اليماني، سيرة الحاجب جعفر، ص108.

الفصل الثالث:

الحياة العامة للسكان ومظاهر الاضطرابات الاجتماعية

- **الحياة العامة للسكان.**
  - **الطعام.**
    أ- طعام أهل الحكم.
    ب- طعام العامة.
  - **اللباس.**
    أ- لباس أهل الحكم.
    ب- لباس العامة.
  - **الاحتفالات.**
    أ- الزواج.
    ب- الختان.
    جـ - الأعياد الدينية.
  - **العادات والتقاليد (عرض عام).**
    أ- دور المرأة في ا تمع.
    ب- مراسيم الدفن.
- **مظاهر الاضطرابات الاجتماعية.**
  - **الحروب.**
  - **ا اعات والأمراض المستوطنة.**
  - **الهجرة الداخلية والخارجية.**

- :

برغم الصعوبات الجمة التي اعترضتنا من أجل جمع شتات هذا الموضوع، بسبب شح المصادر والمراجع، أو إهمالها لهذا الجانب المهم في حياة ا تمع، لذلك كان اعتمادنا على ما تناشر هنا وهناك من نصوص ومعلومات بين ثنايا كتب التراجم والطبقات، ورصد آراء بعض الجغرافيين، في محاولة متواضعة منا، لإعطاء القارئ صورة بسيطة وواضحة في هذا ا ال.

- **الطعام:**

بادئ ذي بدء نقول؛ إن معرفة نوع الطعام، الذي كان يحضر على موائد سكان المغرب الإسلامي في عهد الفاطميين، تعطينا فكرة واضحة عن نمط حيا م، ومدى رقيهم الاجتماعي، وللوصول إلى هذه الغاية ارتأينا تقسيم الموضوع إلى قسمين، فالأول: تناولنا فيه، أحوال الطعام عند أهل الحكم من الخلفاء الفاطميين وحاشيتهم، أما الثاني: فخصصناه، لأحوال عامة الناس في الطعام، وما كان يعد على موائدها.

أ- طعام أهل الحكم: لقد تفنن أفراد هذه الطبقة في إعداد الأطعمة الشهية، والأطباق اللذيذة، وتلوين موائدهم بأصناف الفواكه والخضار، حتى كان يستدعي الأمر في بعض الأحيان جلبها من مناطق بعيدة، ومما لا شك فيه أن مائدة الخليفة عبيد الله المهدي، كان ا من أصناف الطعام، وأنواع الفواكه، ما يزيد عن حاجته، كيف لا، وقد كان الخدم من حوله يحملون ما فضل من طعام مائدته إلى الأسواق لبيعه، أو التصدق به على الفقراء والمساكين[1]، أما خادمته المكلفة بتحضير المائدة، فكانت تجمع الخبز الباقي من على المائدة، فتدفعه إلى قوم موكلين بتسمين الحيوان لمائدة المهدي[2].

---

[1] اليماني، سيرة الحاجب جعفر، ص108.

[2] نفس المصدر والصفحة.

ويبدو أن عبيد الله المهدي، كنا حريصا كل الحرص على أن يكون "حوت البورى" حاضرا على مائدة طعامه، ولذلك كان يأمر أعوانه، بإحضار هذا النوع من السمك الجيد من مدينة "باجة"، وفي ذلك أورد البكري[1]: "و ا- باجة- حوت بوري ليس له في الآفاق نظير... كان يحمل إلى عبيد الله حو ا في العسل، فيحفظه حتى يصل طريا.."، ولا شك في أن رواية البكري هذه ذات قيمة من الناحية الاقتصادية، إذ تشير إلى أن الفاطميين كانوا على دراية واسعة في مجال حفظ الأغذية وتصبيرها، وبخاصة تلك التي يخشى فسادها، بدليل اهتدائهم إلى طريقة استعمال العسل كمادة مصبرة للسمك، لاسيما، إذا جلب هذا الأخير من مناطق بعيدة.

وإذا تفاخر الفاطميون بتحضيرموائدهم بالوان الأطعمة واللحوم، كذلك عمدوا الى تزيينها باصناف من الفواكه اللذيذة ذات القيمة الغذائية العالية، ونعني بذلك؛ التمور والتفاح، وما إلى ذلك، حيث أثر عن الخليفة عبيد الله المهدي أنه كان مولوعا بأكل تمر "اللياري"، ذو النوعية الجيدة، غذ اختصت مدينة بسكرة بإنتاجه دون سواها، حتى أنه كان يأمر عماله بمنع بيع هذا النوع من التمور، وأن يرس منه إليه، حسب إشارة البكري"[2]، ومن خلال هذه الرواية ، يبدو أن تمر "اللياري" لم يكن في متناول عامة الناس!.

كما اشتهر الخليفة المعز بحبه لأكل تفاح المشرق، الذي يأتي به ولاته"[3]، ولم تخل موائد الفاطميين من أطباق الحلوى الشهية، وانواع المشروبات ، وأصناف الكعك، فكانوا ربما دعوا لتناولها بعض رجال الدولة والأعيان، والزوار، ممن كانوا يفدون إلى قصورهم، لاسيما في المناسبات السارة، والأعياد الدينية، أو ربما يقومون بتفريقها على الرعية، و بعض العلماء من أهل السنة، لاستمالتهم. حسب ما ورد في بعض المصادر[4].

ب- طعام العامة:

---

(1) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص57.

(2) نفس المصدر، ص713.

(3) انظر القاضي النعمان، ا الس والمسايرات،191

(4) المالكي، رياض النفوس، ج2، ص294.

ازدانت موائد العامة هي الأخرى بأطباق الطعام والمأكولات، وقد كان التأنق في تحضيرها بحسب قدرة كل عائلة أو فرد على الإنفاق، إذ لا يتساوى الغني والفقير، والتاجر والفلاح في إعداد نفس الطبق، غير أن الملاحظ هو أن اللحم بأنواعه شكل طعاما أساسيا لاغلبية سكان المغرب الإسلامي، بصرف النظر عن دخل كل فرد، لأن البلاد تتوفر على مخزون هام من الماشية الأبقار والإبل، ما يزيد عن حاجة السكان، وقد نستدل على ما ذهبنا إليه، بما أورده "ابن حوقل" حيث يقول: "ولهم الخيل النفيسة من البراذين الفره والإبل والغنم، وما لديهم من ماشية البقر، وجميع الحيوان الرخيص"[1].

أما فيما يتعلق بأهم الأطباق التي كانت تحضر على موائد أهل المغرب الإسلامي عموما، فإننا نقرأ في بعض كتب التراجم، أن الحسن بن نصر الفقيه (ت333هـ/944م)، كان إذا صام، أفطر على "حريرة مع إدام وحوت مقلي"[2]، وفي هذا المقام نشير إلى أن هذه الأكلة، ألا وهي "الحريرة" مازالت تحظر إلى الآن، لاسيما في مدن من الشرق الجزائري، والبلاد التونسية، والتي تشتهر عندهم باسم "العصيدة"[3].

وقد أورد الدباغ[4] في سيرة الفقيه أبي عثمان بن سعيد بن محمد الغساني (219-302هـ-834-914م)، بأن هذا الأخير، كان مقلا في طعامه، إذ كان يأكل من الجمعة إلى الجمعة التي بعدها رطلا من اللحم لا يتجاوزه، فكان "يجعل عظامه في ليلة، وشرائحه في ليلة، ثم يأكل في الليلة الثالثة "حريره"، وفي الرابعة "سلقا وحمصا"، وفي الخامسة، "سلقا وإسفنارية"، وفي الليلة السادسة، "سلقا وفولا"، وفي السابعة، يأكل، "لحما".

وقد اعتبر "حسن حسني عبد الوهاب": "أن عادات الطبيخ في مدينة "المهدية" هي نفسها، الموروثة عن العهد الفاطمي لدى النساء، وخاصة الطبيخ، المسمى "بالمرسي"، المعروف عند أهالي مدينة تونس باسم "الزرير"، وهو عبارة عن مزيج من الأبزار والبهارات، حار

---

(1) ابن حوقل، صورة الارض، ص95.

(2) المالكي، رياض النفوس، ج2، ص394.

(3) "العصيدة": هي عبارة عن ثريد من الخبز، يطبخ مع السكر أو العسل، أو يضاف إلى السمن، أحمد رضا، قاموس رد العامي إلى الفصيح، ص386.

(4) معالم الإيمان، ج2، ص212.

الطبيعة، يعطى للمرأة النفساء بعد فترة الوضع، ليعينها على الطمث، وتنظيف ما في بطنها من دماء متحققنة"[1]، وفي تصورنا أنه لا فرق بين طبق "الزرير" الذي يعرفه التونسيون، و"الزريرة"، التي يصطلح عليها في مدن الشرق الجزائري، وبخاصة في نواحي "قالمة، و"عنابة"، و"سكيكدة"، بدليل أن المناسبة التي يحضر فيها هذا الطبق هي نفسها في تونس أو الجزائر، ولا شك أن هذا التقارب في عادات الطبيخ، بين البلدين، يؤكد على وحدة التاريخ المشترك بينهما، والذي امتد عبر قرون طويلة خلت من الزمن!.

وعلى ذكر الطعام أيضا، فقد أشار المالكي[2] في ترجمة الفقيه الزاهد أبي ميسرة (ت333هـ/944م) إلى أنه كان على مائدته ثلاثة ألوان من الطعام: ثردة بالسلق، وصير[3]، وزيت، مع الخبز".

ويبدو أن من عادة السكان في الطبيخ إضافة شيء من البهارات[4] إلى أطعمتهم، حتى تكون بذلك الد وأشهى، إذ نقرأ في آراء بعض الجغرافيين ما يشير إلى ذلك[5].

وإلى جانب الطعام، احتوت الموائد أيضا، على كل أصناف الثمار والفاكهة اللذيذة، حيث تراوحت ما بين أطباق: التين، والتمر، والخوخ، والمشمش، والسفرجل، والعنب والرمان، وأيضا الفاكهة التي تدعى "بالكمثرى"[6]، والتي يبدو أن أهالي مدينة أطرابلس اعتادوا اعتادوا على تناولها مثل هذه الفاكهة، وبخاصة أن إنتاجهم منها غزير[7].

---

(1) حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا ، ج3، ص371.

(2) رياض النفوس، ج2، ص363.

(3) جمع، مفردهخا، صيرة، وهي السمكة الصغيرة تكون مملوحة، أحمد رضا، قاموس رد العامي إلى الفصيح، ص350.

(4) ويقصد ا التوابل ذات الرائحة الطيبة، والتي تتخلى عن نكهتها لما توضع في الطعام، أحمد رضا، نفس المرجع، ص145.

(5) ارجع في ذلك إلى: الإدريسي، نزهته، ص76، 77، وابن حوقل، صورة الأرض، ص75.

(6) ويدعى الإنجاص، ويسميه البربر "تيفرست" أنظر: أبي الخير الإشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، ج2، ص428، 429، الشيخ محمد حسن آل ياسين، معجم النبات والزراعة، ج1، ص354.

(7)انظر ابن حوقل، صورة الأرض، ص71.

ويعتبر طبق الحلوى والمسمى "الفالوذج"[1] من بين أشهر أطباق الحلويات التي تعارف عليها سكان بلاد المغرب الإسلامي، فكانوا يقدمونه في المناسبات، وفي رمضان، تعطى للصائم قبيل إفطاره"[2]، وربما كانت بعض أطباق الحلوى الفاخرة، أصعب منالا بالنسبة للفقراء، وبعض ميسوري الحال، لارتفاع تكلفة تحضيرها، ومثال ذلك "طبق الغسانية"، فقد أورد بعضهم في ترجمة حياة أبي الفضل العباس بن محمد الصواف الغدامسي (ت349هـ/960م)، بأن هذا الأخير ".. أقام يشتهي "غسانية" سنين عدة.."[3].

وإن كان طابع التقشف، قد غلب على طعام بعض الزهاد والفقراء، وغيرهم من الفئات المحرومة في ا تمع، فلا يبدو الأمر كذلك، بالنسبة لفئة التجار، من ذوي الدخل الوفير، إذ كانوا يميلون إلى الإكثار من تناول الأطعمة، وشرب النبيذ، والتظاهر بمظاهر الخلاعة وا ون[4].

وا ون[4].

---

[1] طيبة صالح الشذر، ألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ، ص89.

[2] أنظر، المالكي، نفس المصدر، ص395.

[3] المالكي، المصدر السابق، ص448.

[4] ابن حوقل، المصدر السابق، ص77.

o اللبـاس:

يكتسي موضوع اللباس في المغرب الإسلامي أثناء العهد الفاطمي أهمية بالغة، لما يتضمنه من قيم ثقافية حضارية، تنبع من أصالة ا تمع، وعمق تقاليده الضاربة في التاريخ، فاللباس بطبيعة الحال، لم يكن موحدا عند كل الأهالي، ذلك لأن هذا الأمر يكون مرتبطا دائما باختلاف الطبقات الاجتماعية هذا من جهة، وظروف العمل، والذوق والمواسم من جهة أخرى، مع الإشارة إلى أنه قد يحدث تداخل في اللباس بين طبقة وأخرى.

أ- لباس أهل الحكم: لقد أشرنا- فيما سبق- عند تناولنا "لطبقات ا تمع"، كيف أن أفراد الطبقة الحاكمة، على اختلاف وظائفهم في الدولة، حاولوا الظهور أمام الرعية بمظهر العظمة والإجلال، ومن ذلك اعتناؤهم باللباس، والبذخ فيه، الأمر الذي أفرز شكلا من أشكال التباين الطبقي، الاجتماعي، فاختص الخلفاء عمن سواهم بلبس الثياب المحلاة بالذهب والجوهر، كما لبسوا المبطنات[(1)]، والأقمصة والسراويل والجباب[(2)]، والتي كانوا يجلبو ا من اقاليم بعيدة، من مرو[(3)]، وإرمينية[(4)]، وغيرهما، فحينما طلب جوذر الصقلبي من الخليفة المعز إهداءه من ثياب الأئمة الفاطميين- تبركا م- حسب زعمه، أرسل إليه هذا الأخير، بأثواب شتى شملت: ".. مبطنة مروى وقميصا تحتها، ومن لباس المهدي، مبطة مصمت فاختي، وقميصا من أقمصته، ومن لباس القائم، قميصين وسراويل وعمامة، وتكة أرمني بيضاء، ومن لباس المنصور بالله، جبة مروى، وقميصا من تحتها.."[(5)].

---

(1) جمع مفردها "مبطنة"، قماش رفيع، يقطع أربعة أقمصة، ويتخذها أصحاب السلطان، والرسميون في الدولة، طيبة صالح الشذر، ألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ، ص60.

(2) جمع مفردها، جبة، وهي ضرب من مقطعات الثياب تلبس، ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص249.

(3) "مرو" مدينة في بلاد فارس، البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج3، ص1296، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص456.

(4)انظر عنها :ياقوت الحمودي ، معجم البلدان، ج1، ص159،البكري ،نفس المصدر ،ج1 ص141.

(5) الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، ص138، 139.

كما اتخذوا على رؤوسهم العمائم، وكانت تارة موشاة بالذهب[(1)]، وتارة أخرى من غيره، وعادة ما تكون "العمامة" من جنس الثوب الملبوس مادة ولونا، حفاظا على تناسق الألوان، حسب ما اشار به ابن عذاري"[(2)]، أو ربما استغنوا عن العمائم، فاستبدلوها بقلانس[(3)].

ويبدو أن الخلفاء كانوا يحبذون ارتداء الثياب الدبيقية[(4)] الفاخرة، فهي على نفاستها وجمالها، كانت غالية الثمن أيضا؛ "فربما بلغت الحلة منها مائة دينار، وإذا كانت مطرزة بالذهب بيعت بمائتي درهم"[(5)]، وقد كان أول من اتخذ مثل هذا النوع من الثياب، عبيد الله المهدي، عند وصوله إلى رقادة[(6)]؛ ومهما يكن من أمر، فقد يلجأ الخليفة أحيانا إلى خداع الرعية، فيطرح عنه لباس الملك، ويكتفي بثوب بسيط، كالذي تلبسه العامة، كي يبدو أمامها بمظهر الخليفة المتواضع، الساعي في شؤو ا، فقد تظاهر المعز لدين الله بذلك، أمام شيوخ كتامة، حينما استدعاهم إلى مجلسه بالمنصورية، فوجدوه متربعا، وعليه "جبة"، فقال لهم: "رأيت أن أنفذ إليكم، فأحضركم، لتشاهدوا حالي، إذا خلوت دونكم، واحتجبت عنكم، وأني لا أفضلكم في أحوالكم، إلا فيما لابد لي منه من دنياكم.."[(7)].

وربما دلت الألوان في ثياب الخلفاء الفاطميين على مظاهر عدة، بحيث أن لون اللباس في ظروف الحرب، يختلف عنه في ظروف السلم، فاختيار اللون الأحمر الداكن، والذي يميل إلى لون الدم القاني،كان للتعبير عن حالة الغضب، وعدم الاستقرار ؛ بدليل أن المنصور بالله اتخذ مثل هذا اللون على ثوبه، حينما خرج محاربا لأبي يزيد اليفرني[(8)]. وقد يدل اللون الأصفر في لباسهم على الاستشراف بالنصر، فقد أورد "الداعي إدريس" في هذا الصدد، كلاما للمنصور

---

(1) الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، ج5، ص248.

(2) البيان المغرب، ج1، ص158.

(3) ابن أبي دينار، المؤنس، ص55، ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسير م، ص46.

(4) نسبة إلى مدينة "دبيق" بمصر، آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ص234.

(5) ابن حوقل، صورة الأرض، ص143.

(6) اليماني، سيرة الحاجب جعفر، ص125.

(7) المقريزي، الاتعاظ، ج1، ص95.

(8) الداعي إدريس المصدر السابق ، ص256.

يقول فيه لأصحابه: ".. إني ألبس في اليوم الذي آخذ فيه أبا يزيد ثيابا مصفرة، فإذا رأيتموني لبستها، فثقوا بالنصر والفتح إن شاء الله.."[1].

واتخذ رجال الدولة الثياب الرفيعة تشبها بخلفائهم، فلبس الداعي أبو عبد الله الشيعي ثوبا توتيا، وظهارة من كتان، وعمامة، ومنديلا إسكندرانيا[2]، كما لبس جعفر الحاجب ثوبا دبيقيا، وعمامة، وسراويل، كان قد أهداه إياها الخليفة عبيد الله المهدي[3].

ب- لباس العامة:

وإن كان هذا حال لباس "الخاصة" من أهل السلطان؛ فإن باقي سكان المغرب الإسلامي عموما غلب على لباسهم، كل ما هو محلي الصنع، فلبسوا "البرنس"، وهو لباس يتخذ عادة من الصوف،و يستعمل شتاءا للوقاية من المطر أو البرد القارص، ولا شك أن "ابن حوقل"[4] قد قد تفطن إلى إطلاق اسم "البرانس" على الذين يلبسو ا، قبل أن يطلقها عليهم "ابن خلدون" بقرون طويلة، وقد ذهب المقدسي[5]، إلى أن عامة السكان من البربر، وهم الذين عبر عنهم "بالسوقة"، كانوا يلبسون "المناديل"، والمنديل: لباس صوفي يغطي الرأس، ويتدلى على الكتفين والظهر، وقد يدل لبسه على تعظيم مكانة صاحبه الاجتماعية، وبخاصة، إن كان من أصحاب الثروة والأموال"[6]، إلا أن المنديل كان من جملة الأكسية الرفيعة التي يتقدم ا ذوو السلطان إلى الأطباء، اعترافا بمجهودا م العلمية"[7]، كما لبس بعضهم "الجبة الصوفية" أو "الحريرية"، غير أن لبس "الحرير" عموما، كان غير مرغوب فيه لدى بعض الفئات الاجتماعية، فقد ورد عن "ابن خلدون"[8]: "أن أصحاب أبي يزيد قد نقموا عليه اتخاذ الحرير في لباسه، ورأوا في

---

(1) الداعي إدريس القرشي، المصدر السابق، ص255.

(2) اليماني، المصدر السابق، ص130.

(3) نفس المصدر، ونفس الصفحة.

(4) صورة الأرض، ص99.

(5) وصف إقليم المغرب، مقتبس من كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص46.

(6) انظر المالكي، رياض النفوس، ج2، ص53.

(7) ابن أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص59.

(8) العبر، ج7، ص15.

ذلك خروجا عن عادا م، وما تعارفوا عليه"، ويبدو أن أبا يزيد اتخذ مثل هذا اللباس الحريري الفاخر، بعد أن تحسنت أحواله المادية، ذلك أنه كان قبل ذلك على حال من الخصاصة والفقر"[1].

وذهب شارل أندري جوليان إلى القول "بأن "العباءة الصوفية" كانت لا تغادر الرجل البربري القديم"[2]، وهي عبارة عن معطف شبيه بالبرنس، وهذا ما يفسر حسب رأينا بقاء هذا هذا اللباس إلى اليوم، سمة لدى عامة الأهالي، ويطلقون عليه اسم "العباية".

وقد فرضت ظروف الطبيعة القاسية على سكان الصحراء خاصة، التزام اللثام على الأنف والفم، اتقاءا للعواصف الهوجاء المحملة بالرمال، أو لحرارة الشمس اللافحة، وقد لاحظ، "ابن حوقل" انتشار مثل هذا اللباس بين سكان أودغست، ومن جاورهم من بربر صنهاجة فأورد في هذا الصدد: ".. ولم ير لأحدهم ولا لصنهاجة، منذ كانت من وجوهم غير عيو م، وذلك أ م يتلثمون وهم أطفال، وينشأون على ذلك؛ وأن الفم سوءة تستحق الستر كالعورة، لما يخرج منه، إذ ما يخرج منه عندهم أنتن مما يخرج من العورة"[3]، ويبدو أن عادة اللباس هذه لازلت معروفةإلى يومنا هذا، وخاصة في أوساط السكان بجنوبنا الصحراوي في نواحي مدن "جانت" و"تمنراست"، و"تقرت". كما لبس سكان بلاد السوس "المآزر الصوفية" فكانوا يحتزمون ا في أوساطهم، حسب إشارة الإدريسي[4]، ووصف "ياقوت الحموي" سكان مدينة "سوسة"، فقال: "أن أكثر أهلها حاكة، ينسجون الثياب السوسية الرفيعة"[5]، ونستنتج من خلال هذه الرواية بأن أهالي هذه المدينة، كانوا يتخذون من الثياب المصنوعة، لباسا لهم، كما لبس بعضهم

---

[1] ابن خلدون، المصدر السابق، ص13، الداعي إدريس، تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب، ج5، ص301، 302.

[2] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج1، تحقيق: محمد مزالي والبشير بن سلامة، ص76.

[3] ابن حوقل، صورة الأرض، ص98.

[4] وصف إقليم المغرب، ص78.

[5] ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص282.

"القلنسوة"[1]، وجعلوا "الطرطور"[2]، على رؤوسهم، لاسيما منهم بعض المتصوفة، وأصحاب الكرامات، لتعظيم مكانتهم الاجتماعية، كما ذكر "ابن حماد"[3].

وربما اختار بعض الزهاد والمقلين، لبس "الأخلاق"، وكل ما رث من الثياب، وقد اشهرهم "جبلة بن حمود"[4]، أو لجأ بعضهم إلى لبس الفاخر من الثياب، اعتزازا أمام السلطان، مثل ابن الحداد، فقد أورد الدباغ[5]، أن هذا الأخير: "كانت كسوته عشرين دينارا، وكانت له له همة يتيه ا على أهل الدنيا، ويلبس لباس الشرفاء للتيه في أعين الأعداء..".

أما عن لباس النساء، فقد خلت المصادر- التي بين أيدينا- عن ذكر ما كانت ترتديه المرأة في عصر الدراسة- إما عن قصد أو غير قصد، باستثناء ما ورد في بعضها، ومن ذلك أن المرأة لبست "المربعة"، وهي خرقة لطيفة تتخذ في العادة من الصوف الناعم، تشدها على الرأس كالعمامة، من غير إدارة على الحنك، ولا شك أن هذا النوع من اللباس، كان مشتركا بين المرأة والرجل، ودليل ذلك، ما أورده "المالكي" سيرة أبي علي بن نصر السوسي (ت341هـ/952م)، بأن هذا الأخير كان يجعل على رأسه "مربعة" زوجته"[6].

ويبدو أن نساء مدينة "قابس"، اعتدن لبس "النقاب" عند خروجهن للتسوق، أو لقضاء بعض شؤو ن خارج الم ل، فقد ورد في بعض المصادر في هذا الصدد أن: ".. نساءها لا يرين في ذلك عليهن حرجا، إذا سترت إحداهن وجهها، ولم يعلم من هي"[7]. كما يمكن أن نستخلص من هذه الرواية، أن هناك من الرجال من يدفعهم الفضول إلى التعرض إلى النساء،

---

(1) ابن أبي دينار، المؤنس، ص55.

(2) نوع من القلانس، دقيقة الرأس، وكثيرا ما يلبسها المهرجون، الشيخ أحمد رضا، قاموس رد العامي إلى الفصيح، ص364.

(3) ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد، ص26.

(4) المالكي، رياض النفوس، ج2، ص30.

(5) معالم الإيمان، ج2، ص211، 212.

(6) المالكي، المصدر نفسه، ج2، ص399.

(7) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص18.

ومضايقتهن، أو كشف سترهن، وهذا سبب كاف- حسب رأينا- دفع النساء إلى المبالغة في لبسهن، حتى لا يتعرضن لافتتان الرجال ن.

وذهب الباحث حسن حسني عبد الوهاب، إلى القول، بأن نساء "المهدية" ورثن عن أمها ن منذ القديم أنواعا من الكساء، والتطريز بالحرير على البدل الداخلية، وأنواعا من الوشاح، والحواشي الحريرية المزركشة بألوان مغايرة، وكلها متوارثة عن عهد الفاطميين- على حد تعبيره[1]،وقد يضطر الناس في ظروف الحرب والحصار إلى لبس الجلود والأنطاع[2].

وقصارى القول، فإن لباس سكان المغرب الإسلامي في عهد الفاطميين اتسم بالبساطة، وعدم التكلف، بدليل أن أبا عبد الله الشيعي، كان قد أعاب على الخليفة عبيد الله المهدي سياسته العامة تجاه كتامة، لاسيما في مسألة اللباس والزينة، حينما أمرهم بالتجمل واتخاذ الحلي، واعتبر الداعي أن هذه الخطوة فساد لهم، وخروجا عن عادا م"[3]، وإن كان الأمر يختص بكتامة وحدها، فيمكن أن يشمل كافة أهالي المغرب الإسلامي.

---

(1) ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، ج3، ص272.

(2) انظر الداعي إدريس القرشي ، المصدر السابق ص144.

(3) القاضي النعمان، الافتتاح، ص308.

o الاحتفالات:

وعبر السكان في المغرب الإسلامي على عهد الفاطميين عن مسرا م وأفراحهم مثل غيرهم من ا تمعات الإسلامية، بإقامة احتفالات في مناسبات عدة، كالزواج والأعياد، الدينية، والختان، وغيرها، فتجلت فيها كل مظاهر التضامن والألفة والمحبة بين أفراد وفئات ا تمع، وكان ضمن هذه المناسبات السعيدة، الزواج:

أ- الزواج: لقد اعتبر الإسلام دوما أن "الزواج" أساس العلاقة بين الرجل والمرأة، وأن كل علاقة سواه، هي علاقة محرمة، تستوجب العقاب، فقال تعالى في وصف عباده المؤمنين: وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ [1].

ولا تكاد عادات الزواج في بلاد المغرب الإسلامي في ذلك الوقت تختلف عما هي عليه الآن، إذ كانت الأعراف، تقتضي أن يختار الشاب شريسكة حياته كخطوة لابد منها، لأ ا أساس الزواج السعيد والمستقر، ويبدو أن المعز لدين الله قد تفطن إلى خطورة هذه المرحلة، بالنسبة للمقبلين عليها، حينما أوصى- قاضي قضاته- النعمان بضرورة التحري عنداختيار الكنات (الزوجات)، قبل تزويج ولديه، "فقليلا ما تقع الموافقة من النساء"، حسب زعمه[2].

وربما كان من بين المحفزات التي تجعل الرجال يقدمون على الزواج من النساء، أن تكون الفتاة مثلا من الحافظات لكتاب الله تعالى، أو بعض الأحاديث النبوية الشريفة، لما في هذا الزواج من بركة، فقد جاء في بعض المصادر، أن الفقيه أحمد بن نصر (ت402هـ/1011م) كان يقول: "تزوجت امرأة حافظة لكتاب الله عز وجل، وحفظت الموطأ.."[3].

وإذا ما تم اختيار الزوجة المناسبة، يجتهد أولياء الفتاة في إعداد "جهازها"، والذي يشمل اللباس والزينة، وبعض المتاع الم لي، ويكون ذلك قبيل زفها إلى بيت زوجها، وجرت العادة

---

(1) سورة المؤمنون، الآيات: 5-6-7.

(2) القاضي النعمان، ا الس والمسايرات ص544.

(3)انظر المالكي، ، المصدر السابق ص186.

أيضا، أن يتقدم أهل العروس (الزوج) بمبلغ مالي رمزي، من قبيل التضامن مع أهل الفتاة، ويبدو أن "جهاز العروس" كان محل نزاع بين بعض العائلات، مما كان يستدعي الأمر في بعض الحالات اللجوء إلى القاضي حماس بن مروان (ت303هـ/915م) للفصل فيها، فقد أورد "المالكي"[1] في هذا الصدد: "تخاصم رجلان في حق العرس إلى حماس بن مروان، فقال العروس: ليس يجب علي حق العرس، وقال أبو العروبة: بل هو واجب عليك، فقال لهم حماس، المعروف في البلد أنه من أتى إليه بشوار يساوي خمسة وعشرين دينارا، دفع دينارين ونصفا، وإن كان أقل من ذلك دفع على قدر ذلك، فقال له العروس: فإنه لم يدفع إلي شيئا من الشوار له قيمة". و نستخلص من هذه الرواية بأن "جهاز العروس" كان الأمر فيه جار على العرف بين الناس؛ ومهما يكن فإن الأصل الشرعي في الزواج هو "الصداق" الذي يدفعه الرجل للمرأة لحل الاستمتاع ا، مصداقا لقوله تعالى في سورة "النساء": ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾[2].

وقد يدفع الفقر أحيانا بعض الشباب إلى عدم القدرة على استيفاء مهر الفتاة كاملا، فيميلون إلى ترك ما بقي منه، إلى ما بعد الزواج، فهذا أبو جعفر القمودي الفقيه المشهور (ت324هـ/935م)، تزوج امرأة، فكان لها صداق سبعون دينارا، فأعطاها سبعة دنانير، وتركت له ما بقي"[3].

ولعل البحث عن مسكن لائق لإتمام الزواج، كان من بين المشاكل الاجتماعية، التي عاني منها، بعض الشباب المقبلين على الزواج، مما كان يضطرهم في بعض الأحيان، تأخير الزواج إلى حين، بدليل أن الخليفة المعز لدين الله حينما استفسر القاضي النعمان عن سبب تأخيره في تزويج ولديه، أجابه القاضي فقال: ".. يا مولاي، على أن ينظر عبدك لكل واحد منهما في مسكن ويزوجه.."[4]، وإن كان المرء ليستغرب هذه الرواية، كيف أن قاضيا ، مثل "القاضي

---

[1] رياض النفوس، ج2، ص121.

[2] سورة النساء، الآية: 4.

[3] المالكي، المصدر السابق، ص211.

[4] القاضي النعمان، ا الس والمسايرات، ص544.

النعمان"، وبحكم مركزه الاجتماعي، ونفوذه السياسي في الدولة الفاطمية، يحتار في إيجاد مسكن؟!، فكيف هي الحال بالنسبة إلى الرعية!

وقد كانت بعض الأسر المحظوظة اجتماعيا ترى في خطبة بنا ا لمن هم دو ا، مهانة، وتنازلا عن مكانتها الاجتماعية المرموقة، وبخاصة إن كان الخاطب اليها من ذوي المكانة العلمية، فقد ورد في سيرة الفقيه المالكي أبو بكر محمد بن وشاح (ت333هـ/944م) أن هذا الأخير، قال: ".. خطبت إلى جماعة من الناس فردوني، وقالوا: لا تزوج صاحب محبرة وقلم، فخطبت إلى هذا الرجل فلم يردني، وزوجني ابنته لله عز وجل"[1].

كما يمكن الوقوف عند جوانب تتعلق ببعض الطقوس والعادات التي كانت تمارس في قصور الفاطميين "ليلة الزفاف" من خلال ما ورد في به بعض المصادر، في وصف زواج عبيد الله المهدي من ابنة عمه، حيث جاء على لسان الحاجب جعفر قوله: "فأذكر أن المهدي ع م تقدم إلي بأن لا أبرح في ليلة زفافها عليه من باب ا لس، قال، فلزمت النساء حولي، إلى أن فتح المهدي ع م الباب ورمى إلي بالنسبية، قال: فنشر ا على رأسي، ورقصت ا، والنساء حولي يلعبن ويكبرن"[2].

---

[1] انظرالمالكي، رياض النفوس، ج2، ص385.

[2] اليماني، سيرة الحاجب جعفر، ص108، 109.

ب- الختان:

لا شك أن ختان الأولاد، كان عادة شائعة في الجاهلية، فقد ذهب ادم متز[1] إلى أن الاحتفال بهذه المناسبة السارة، كان شبيها بأعياد بلوغ الشباب عند القدماء".

ولم تنفك أن أصبحت هذه العادة من سنن المسلمين التي درجوا على الاحتفال بها، لما فيها من الفوائد الصحية بالنسبة للإنسان، وربما كان ختان النساء- الذي يسمى حفاظا- من الأمور التي تفهم ضمنا من الأحاديث النبوية الشريفة، حيث ورد في الأثر: "أن الختان سنة للرجال، مكرمة للنساء"[2].

ومهما يكن، فقد أصبح ختان الأولاد مظهرا من مظاهر الحياة الاجتماعية السائدة في المغرب الإسلامي، مثل بقية أنحاء العالم الإسلامي. وقد تميزت الاحتفالات بهذه المناسبة على عهد الفاطميين عموما، بأنها كانت ذات طابع جماعي ، إذ أصبح مألوفا أن يقوم الخليفة الفاطمي بالإشراف على ختان مجموعة من الصبيان في مملكته، من الفقراء والأيتام والمساكين في حفل بهيج، تفرق فيه الصدقات والهدايا والجوائز القيمة على الحاضرين، في أجواء من الفرحة، والألفة، ومماجاء في هذا الصدد: "أنه في سنة 330هـ/941م، ختن إسماعيل المنصور أولاده، وختن معهم ألف صبي من أبناء القيروان، وكساهم، وأعطاهم ما ينفقون وأمر كتامة أن يختنوا أولادهم"[3].

واضاف متز بالقول: أن ظاهرة "الختان الجماعي" لم تختص بالفاطميين وحدهم، بل كانت معروفة عند العباسيين أيضا، فحينما ختن الخليفة المقتدر العباسي أولاده الخمسة، ختن قبل ذلك جماعة من الأيتام، وأنفق في هذا الختان مالا كثيرا، قدر بخمسة آلاف دينار عينا، ومائة ألف درهم ورقا، وفرقت فيه دراهم وكسوة، وكان ذلك في سنة 332هـ/943م"[4].

---

[1] آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ص201.

[2] صحيح البخاري، ج2، ص102.

[3] انظر ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرهم، ص47.

[4] آدم متز، المرجع السابق، نفس الصفحة.

وقد درج الخليفة المعز لدين الله على خطى والده في إتباع سنة الختان الجماعي، غير أن نسبة المستفيدين على عهده من هذه العملية كانت أكبر وأشمل، بحيث طالت كل فئات ا تمع، بما في ذلك الفقراء والأغنياء، والتجار والفلاحين، والذميين، ولم يستثن منهم أحدا، فقد أورد "القاضي النعمان" في هذا الصدد فقال: "ولما أراد الإمام المعز لدين الله (صلع)، ن يطهر عبد الله ونزارا وعقيلا بنيه، تقدم إلى خاصته وأوليائه، وسائر جنده، وعبيده، وجميع رجاله، وكافة من بالحضرة، من سائر التجار، والصناع، وعامة الرعية بالمنصورية والقيروان، وجميع مدن إفريقية، وكورها من حاضر وباد، وأمر بالكتب إلى العمال من لدن برقة وأعمالها، إلى سجلماسة وحدودها، وما بين ذلك، وما حوته مملكته، وإلى جزيرة صقلية ومن ا.ز أن يتقدموا في طهور أبنائهم، يوم الثلاثاء أول يوم من شهر، ربيع الأول من سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، إلى انقضاء هذا الشهر"[1]، وقد يتعجب المرء من المبالغ الضخمة، التي أغدقها المعز لدين الله في هذا الختان ، فقد ورد في هذا الصدد: ".. فكان من جملة المنفق في ذلك، مما حمل إلى جزيرة صقلية وحدها من المال- سوى الخلع والثياب- خمسون حملا من الدنانير، كل حمل عشرة آلاف دينار، ومثل ذلك إلى كل عامل من عمال مملكته ليفرقه في عمله.."[2]، ثم يضيف المصدر: "فكان المعز يطهر في اليوم من أيام الشهر بحضرته اثنتا عشر ألف صبي، وفوقها ودو ا"[3].

أما فيما يختص بالكيفية التي كانت تتم ا عملية الختان، وبعض ما أحاط ا من مظاهر احتفالية، فقد أفادنا "القاضي النعمان" بمعلومات ثمينة في هذا ا ال، حيث أورد فقال: "والختانون في السرادقات على الكراسي، وبين أيديهم المنابر لجلوس الصبيان، والقوم يمسكو م في حجورهم، ويذرون الذرارات الممسكة للدم على ختانا م، ويقفون في البخور، وماء الورد على رؤوسهم، ويرشو م على وجوههم، لما يعتريهم من الروع، والسند بأصناف الملاعب قيام عليهم يلهو م، ويصحبون من طهر منهم يزفون به إلى م له"[4].

---

(1) ا الس والمسايرات، ص556.

(2) المقريزي، الاتعاظ، ج1، ص94.

(3) نفسه، ص95.

(4) أنظر: القاضي النعمان: ا الس والمسايرات، ص557.

وربما أقام الخلفاء الفاطميون عقب حفل الختان موائد عليها أصناف الطعام، يجمعون حولها رفقاء الصبيان المختونين، وأولياءهم لعموم الفرحة وإدخال السرور في نفوسهم، وقد تمثل هده المناسبة فرصة يغتنمها الخليفة فيتصدق على بعض الفقهاء المخالفين له في المذهب لاستمالتهم ،ومما جاء في هذا الصدد،أن المعز لدين الله بعث بأطباق من الحلوى إلى أبي الفصل الغدامسي (اشتملت على قباط ابيض ملوز وغير ملوز وفالوذج ،وطبق غسانية كان هذا الأخير يشتهيها كثيرا

جـ - الأعياد الدينية:

لقد احتفل الفاطميون في أيام عيد الفطر، وعيد الأضحى المبارك، فأقاموا الصلوات في المساجد، وأعدوا لذلك موائد طعام، دعوا إليها خاصتهم، وعامة الناس، ووزعوا عليهم الهبات والهدايا، أو ربما بعثوا بالأضاحي إلى الفقراء والمساكين.

وقد تبدأ التحضيرات للعيد، بدعوة الخليفة لأهل بيته وقرابته، لشهود العيد معه، فقد أورد "ابن الأبار" في ذلك: "وبعث المعز إلى المهدية في عمومته، وأهل بيته، فوردوا له، وحضروا معه عيد الأضحى، وخرج فصلى بالناس، وخطب ونحر"[1].

أما في صبيحة العيد فيخرج الخليفة من قصره، وقد تزين بأفضل ما عنده من ثياب، استعدادا لإقامة صلاة العيد في المسجد الجامع، ومما جاء في وصف موكب الخليفة المنصور بالله يوم عيد الأضحى، ما أورده "الداعي إدريس"[2] في هذا الشأن: "ولما كان يوم النحر، وهو يوم الجمعة، لعشر خلون من ذي الحجة- ركب الإمام- عم- فرسا وردا أحمر بشفاف مذهب، وقد لبس- عم- قباء أصفر، وتعمم عمامة صفراء، وأرخى ذؤابته، وحف به أنصاره، وجنوده، وأولياؤهم وعبيده".

وبعد وصول الموكب إلى المسجد، الذي تقام فيه الصلاة، يدخل الخليفة من المصلى إلى مكان ليستريح فيه قليلا، ثم يعتلى المنبر، الذي أقيم له في المسجد لإلقاء خطبتي العيد على الناس، ومما جاء في خطبتي العيد اللتين ألقاهما المعز لدين الله في سنة 341هـ/952م، قوله في الخطبة الأولى: "الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الأعز الأقدر الخالق المدبر، ذو الكبرياء والجبروت، والعزة والملكوت الأحد الصمد، الفرد المتفرد، الأعلى القاهر، الباطن الظاهر.."[3]، وبعد أن ذكر بمناسك الحج، والحكمة منه، وقصة سيدنا إبراهيم الخليل مع ابنه إسماعيل، وكيف أن الله نجاه من الذبح، جلس على المنبر، ثم قام في الخطبة الثانية، فكبر مثل

---

(1) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص391.

(2) تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب , من عيون الاخبار , ج5 ,ص248 .

(3) الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، ص76.

الأولى، ثم صلى على النبي محمد (ص)، ثم صلى على الأئمة الفاطميين، ثم ختم خطبته بالدعاء لعامة الناس[1].

وبعد فراغ الخليفة من أداء صلاة العيد، يأمر بعد ذلك بإعداد مائدة من الطعام ثم يدعو الناس لتناولها، وقد يستبقي منهم بعض كبار السن، والأطفال لقضاء العيد معه في قصره، تكرما منه ومما ورد في هذا الصدد: "أن المنصور بالله استدعى من أهل القيروان ألف شيخ، وألف حدث، فلما وصلوا خيرهم في التعييد معه، أو الانصراف، فعيد البعض، وانصرف البعض"[2].

وقد ينتهز الفاطميون الفرصة في مثل هذه المناسبات السعيدة، لاستمالة بعض العلماء والفقهاء ممن يخالفو م في المذهب، فكانوا ربما بعثوا إليهم ببعض الكباش للأضحية، والهدايا، وما إلى ذلك، فقد ذكر، أن سعدون بن أحمد الخولاني[3] كان يقبل الأضاحي التي كان يرسلها إليه السلطان، ثم يقوم بدوره بتفريقها على الضعفاء، والمحتاجين من الناس"[4].

---

(1) إدريس القرشي المصدر السابق، ص78 وما بعدها.

(2) ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسير م، ص22.

(3) هو أبو عثمان الفقيه المالكي من سكان المنستير، والملقب "بشيخ الحصون"، كانت له مداراة للملوك سعيا وراء مصالح المسلمين، كان عظيم القدر، شهير الذكر، أدرك سحنونا، ولم يأخذ عنه، كان شيخ قصر المنستير، يجتمع إليه للحراسة أحيانا نحو الأربعة آلاف، حتى خافت منه الشيعة، أنظر: محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ص82.

(4) المالكي، رياض النفوس ج2، ص260.

o العادات والتقاليد (عرض عام):

ظلت العادات والتقاليد الاجتماعية في بلاد المغرب الإسلامي متأصلة، وليدة التاريخ الطويل، والظروف الإقليمية العميقة، ولأن عادات ا تمعات مستمرة ولا تتغير إلا بعد عصور طويلة، لذا كان سبيلنا جمع كل العادات والتقاليد التي جاءت ا المصادر في العهود القريبة من عهد الدراسة، حتى نصل إلى إعطاء القارئ الكريم صورة عن عادات مجتمع المغرب الإسلامي في العهد الفاطمي.

لقد وصف ا تمع بكرم الضيافة، والإسراع إلى إقراء الضيف، ونجدة الغريب، وعابر السبيل، ويظهر اتصاف سكان المغرب الإسلامي بالكرم وحرصهم عليه من خلال عبارات ذكرها "القاضي النعمان" تختص بقبائل كتامة، فذكر أن بعض حجاج كتامة الذين صحبهم الشيعي أبو عبد الله، اشتروا له شاة، وهيأوا له طعاما، ثم أتوه به، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا سنتنا في الضيف، وأنت ضيف فينا"[1]، وحين هاجر بأتباعه من الكتاميين إلى قبيلة " بنو غشمان"، استضافهم الغشمانيون فذبح كل واحد منهم شاة لضيفه، واحتفل في بره وإكرامه"[2].

وقد لاحظ ابن حوقل ان هذه الصفة الحميدة تكاد تكون خلقا يميز كل سكان المغرب الاسلامي، فأورد في هذا الصدد: "وأكثر بربر المغرب الذين من سجلماسة إلى السوس وأغمات وفاس إلى نواحي تاهرت، وإلى تنس والمسيلة، وبسكرة، وطبنة وباغاي إلى أكربال وأزفون ونواحي بونة إلى مدينة قسنطينة الهواء وكتامة، وميلة وسطيف، يضيفون المارة، ويطعمون الطعام"[3].

وعرف ا تمع أشكالا من التضامن والتكافل فيما بين أفراده، فلما نجد لها مثيلا في غيره من ا تمعات، وقد لعب العلماء والزهاد والصالحون دورا رياديا في هذا ا ال، إذ كانوا أنفسهم السباقين إلى ترسيخ مثل هذه المعاني الإنسانية السامية والقيم النبيلة في أوساط العامة من

---

(1) الافتتاح، ص35.

(2) نفسه ، ص88.

(3) صورة الأرض، ص91.

السكان، فقد جاء في بعض المصادر أن رجلا من الصالحين، ويدعى عمرو هاشم بن مسرور التميمي (ت307ﻫ/919م)، كان يمشي في أسواق القيروان، يطوف على الباعة، فيجلس عند الرجل الضعيف، فيقول له: نعطيك دراهم تجعلها رأس مالك، فإذا ربحت ترد إلي الدراهم، فيدفع إليه ما يراه، ثم يقوم فلا يعود إليه"[1]، ومنهم أبو الحسن بن محمد- الفقيه المالكي، فقد ورث هذا الأخير مالا حلالا، فأقام نفسه فيه مقام الفقراء، فكان يصرف في الشهر أربعة دنانير، اثنتين لصدقته، واثنتين لنفقته"[2].

ووصف سكان بلاد المغرب الإسلامي بأ م كانوا أشد تمسكا برعاية حقوق اليتامى والمساكين، والفقراء، وإن كانت قد جرت العادة أن تعيش هذه الشريحة المستضعفة عالة على ا تمع، فلا تجد من يعولها، ويقوم على شؤو ا ومصالحها، فيهب بعض المحسنين، وخاصة ممن تيسرت أحوالهم المادية إلى نجد ا، من باب التآزر والتراحم، ولعل أكبر دليل على ذلك، نجدة أهالي قصطيلة، لأبي يزيد الزناتي، حينما كان صغيرا، فقد توفي والده "كيداد" وتركه على حال من الفقر الشديد، فكان هؤلاء القوم يجزلون عليه بعض الصدقات، عونا له على النهوض بأحواله الاجتماعية، حسب ابن خلدون"[3].

كما وصف السكان بالشهامة والمروءة[4]، وعرفوا أيضا بشدة تمسكهم بالدين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[5]، وكان إذا التقى الرجلان وكانا من الضيعة تصافحا، وتعانقا، وقبل كل واحد منهما يد صاحبه، لا يأنف في ذلك شريفهم عن مشروفهم"[6]، وهم إلى

(1) انظر الدباغ، معالم الإيمان، ج2، ص237.

(2) المالكي، رياض النفوس، ج2، ص526.

(3) العبر، ج7، ص13.

(4) لقد ساقت المصادر أمثلة عديدة تدل على اتصاف أهل المغرب الإسلامي بخلق الشهامة والنبالة، منها ما أورد "ابن حوقل"، عن أهل أطرابلس خاصة، فقال: "ولهم في الخير مذهب من طريق العصبية لايدانيهم أهل بلد، إذا وردت المراكب ميناءهم، عرضت لهم الريح البحرية، فيشتد الموج لانكشافه، ويصعب الإرساء، فيبادر أهل البلد بقوار م ومراسيهم وحبالهم متطوعين، فيقيد المركب ويرسى به في أسرع وقت، بغير كلفة لأحد، ولا غرامة حبة، ولا جزاء مثقال"، صورة الأرض، ص72.

(5) انظر: المالكي، نفس المصدر ، ج2، ص400.

(6) القاضي النعمان، المصدر السابق، ص123.

جانب ذلك كله، كانوا أصحاب بأس، لما اشتهروا به من مقارعة الأهوال، والصبر عند نزال الأعداء، بل إن أكثرهم فرسان، يجيدون ركوب الخيل، وحمل السلاح، ويرون في ذلك فخرا وعزة، ونتبين ذلك من خلال جواب بعض رجال كتامة على السؤال، الذي وجهه لهم الداعي، أبو عبد الله، حينما قال لهم: "فعندكم الخيل والسلاح؟، قالوا: "ذلك أكثر كسبنا، وبه نفتخر، وإياه نقتدي لحاجتنا إليه"[1].

كما تؤكد بعض المصادر، على وجود رابطة الجوار بين الأسر في بلاد المغرب الإسلامي، ولأن من حق الجار على جاره، إكرامه، وعدم التعرض إلى إيذائه سواء بالقول أو الفعل، فكذلك من حسن الجوار أيضا حمايته، ودرء العدوان عنه، ومثل ذلك، أنه حين أرسل صاحب ميلة إلى نبي سكتان من كتامة يطلب اليهم تسليمه أبا عبد الله الشيعي، قالوا: "ما كنا بمن يسلمه، ولا يخذله، ولا يدع أحدا تمتد يده إليه، وهو ضيفنا وبين أظهرنا"[2].

ويحظى شيخ القبيلة في بلاد المغرب الإسلامي باحترام جميع الناس، وعليه يكون مدار شؤو م في الحياة، فسلطته أشبه بسلطة قاضي البلاد، فهو الذي يقضي في الخصومات بين الناس في إطار القبيلة، لاسيما ما تعلق بمسائل: كالثأر، والحدود، أوينظر في ال اعات التي تحدث بينهم حول الأراضي، وقسمة المياه، كما يرجع إليه في مسائل الأحوال العائلية، مثل الزواج، والطلاق، وما إلى ذلك، فقد ذكر "ابن حوقل" في هذا الصدد: ".. وفيهم ملوك ورؤساء، ومقدمون في القبائل يطيعو م فلا يعصو م، ويأمرو م فلا يخالفون"[3]، وللإشارة، فإن ظاهرة الاحتكام إلى الشيخ أو رئيس القبيلة ما تزال منتشرة إلى الآن في مناطق من المغرب الإسلامي، وخاصة في بعض القرى والمداشر، وهذا في رأينا إن دل على شيء إنما يدل على استمرار بعض العادات والتقاليد في الماضي والحاضر، على الرغم من التطور الحضاري الذي تشهده الإنسانية في عصرنا الحالي!.

وعرف ا تمع كيف يتأقلم مع ظروف الطبيعة القاسية، لاسيما عند حدوث الأزمـات والكوارث الطبيعية المفاجئة، كالقحط والزلازل والجفاف، فاهتدى السكان في بلاد المغـرب

---

(1) القاضي النعمان، الافتتاح، ص38.

(2) نفس المصدر، ص54.

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، ص97.

الإسلامي إلى طريقة تخزين بعض المواد الغذائية من قمح وشعير وذرة في مطامير تحت الأرض، ليتم استهلاكها وقت الحاجة، بحيث تظل هذه المواد محفوظة ولفترة طويلة، قد تصل في بعـض الأحيان إلى أكثر من مائة سنة، فتحول هده المطامير تعرضها للإتلاف.

ومجتمع المغرب الإسلامي مثل غيره من ا تمعات، لا يخلو من بعض المظاهر الاجتماعية الغريبة، مثل الاعتقاد بفكرة "ظهور المهدي المنتظر"[1]، وأن هذا الأخير سينشر العدل في الأرض، بعد أن ملئت ظلما وجورا، ومما جاء في هذا الصدد، ما أورده ابن حماد[2]، حول قصة الغلام الذي ظهر على أيام الخليفة المنصور بالله الفاطمي، في نواحي الأوراس، ويدعي أنه القائم بالحق، وقد اجتمع حوله بعض الأتباع، حينها أمر المنصور بالله بالقبض عليه، وسلخه حيا، ثم حشا جلده قطنا، وجعله في تابوت".

ويبدو أن مثل هذه الاعتقادات، قد تجد لها مجالا خصبا، وصدى واسعا، وخاصة في الأوساط الاجتماعية، التي يسودها الجهل والتخلف، فهي حين تقف أمام ظاهرة عاجزة عن تفسيرها علميا، تلجأ إلى نسبتها إلى الغيبيات، أو كأن يتخذ بعض الجهلة من الناس تمائم يجعلو ا في رقا م، لاعتقادهم بأ ا تمنع عنهم عين الحسد، وقد اشتهر سكان مرسى الخرز ذه العادة، حتى لا يكاد يخلو عنق أحد منهم من تميمة[3].

ولكن من جهة أخرى وصف سكان بلاد المغرب الإسلامي بالتعصب، فقد كان يحدث الغزو بين أفراد القبيلة الواحدة إذا اختلفت عصبيتهم، بدليل أنه حين انقسم "بنو سكتان" على أنفسهم بين مؤيد لأبي عبد الله الشيعي ومعارض له، سار هؤلاء في جمع عظيم إلى المؤيدين فلما رآهم "بنو سكتان" المؤيدون، ثاروا عليهم، وركبوا خيلهم، وأخرجوا رحلهم وعد م، وتلقوهم"[4].

---

[1] وحول هذه المسألة أورد "ابن خلدون": "اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار، أنه لابد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين، ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون، ويستولي على الممالك الإسلامية، ويسمى بالمهدي، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على إثره، وأن عيسى ي ل من بعده فيقتل الدجال، أو ي ل معه فيساعده على قتله، ويأتم بالمهدي في صلاته..."، انظر المقدمة، ج2، ص895، و ما بعدها.

[2] أخبار ملوك بني عبيد وسير م، ص26.

[3]انظر البكري، المصدر السابق ص56.

[4] القاضي النعمان، الافتتاح، ص93.

ويرى بعض الباحثين: "أن تلك السمات قد وجدت هوى في نفوس المغاربة، الذين يميلون إلى التشدد، والتمسك بما يؤمنون به، بل أمعن بعض المغاربة في تعصبهم لمذهبهم المحبب، فمن كان مالكيا قبلوه، وأحبوه، ومالوا إليه، ومن كان غير ذلك حاربوه دون هواده، "على حد تعبيره"(1).

وعرف ا تمع ظاهرة السرقة ايضا، فقد لجأ بعض أهل البطالة، تحت تأثير أوضاع اجتماعية مزرية، إلى تأليف عصابات لاعتراض أصحاب الأموال من التجار وغيرهم، ومما جاء في هذا الصدد: "إنه في سنة 305هـ/917م، اعترض بعض اللصوص، طريق الفقيه أبي العباس بن إبراهيم الأزدي الصائغ، فأخذوا ماله، ثم قتلوه"(2).

وانتشرت في ا تمع حانات للهو و ا ون، كان يكثر فيها الفساد، وتناول الخمور، ويبدو، أن هذه الظواهر، أصبحت أكثر انتشارا على عهد أبي عبد الله الشيعي، وبخاصة في القيروان، إلى درجة أن ابي عبد الله أمر واليه على هذه المدينة، بقتل كل من خرج ليلا أو شرب مسكرا، أو حمله، أو وجد عنده"(3).

وقد ورد في بعض المصادر الإشارة إلى أن ظاهرة اللواط كانت معروفة في مجتمع المغرب الإسلامي، لاسيما بين سكان مدينة سطيف، فقد ذكر "ابن حوقل" على لسان أبي علي بن أبي سعيد قوله: "إنه ليبلغ م قرط المحبة في إكرام الضيف أن يؤمر الصبي الجليل الأب والأصل، الخطير في نفسه بمضاجعة ضيفه، ليقضي منه مته، وينال منه الحرام "ويرى ذلك كرما وفخرا، والإباء عنه عارا ونقصا"(4).

لا شك أن الدارس لينظر بعين الريبة والحذر، حينما يقف على محتوى هذه الرواية، خاصة، وأن "ابن حوقل" نفسه نقلها عن غيره، وهو الذي عاين عادات ا تمع، وتحقق منها عن كثب، حتى وإن أخذنا بصحة ما جاء في الرواية السالفة، فلا يمكن تعميمها على ا تمع .

---

(1) انظر حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص463.

(2) ابن عذاري، البيان، ج1، ص151.

(3) نفس المصدر والصفحة.

(4) صورة الارض، ص93.

وكانت قراءة الكف، من العادات المشهورة بين أوساط السكان، وممن اشتهر ا قبيلة زناتة، حتى أن هناك من ذكر ان لاحد من الأمم أعلم من زناتة بعلم الكف"[1].

[1] انظر الإدريسي، ال هة، ص112.

أ- دور المرأة في ا تمع:

احتلت المرأة مكانة محترمة في مجتمع المغرب الإسلامي، سواء في البادية أم في المدينة، وساهمت إلى جانب الرجل في تحمل أعباء الحياة، والتي قد تقسو عليها في بعض الأحيان، إذ لم تمنعها وظيفتها الأساسية كربة بيت في الأسرة، من ورود الأسواق، والمشاركة في حركة البيع والشراء، كلما اقتضت الضرورة لذلك، كما اقتحمت مجالس العلم والأدب، وغير ذلك من ا الات.

لقد ضربت المرأة المثل الأعلى في الاهتمام ببيت الزوجية، فزيادة على قيامها بأعمال الم ل، وتربية الأولاد، فقد كانت عونا لزوجها حتى في أعمال البناء أو إصلاح الجدران، إذ ورد في بعض المصادر، أن زوجة الفقيه الحسن بن نصر (ت341هـ/952م)، كانت تكور له الطين بيديها، وتناوله إياه يلمس به الحائط"[1].

لم تظل المرأة عالة على ا تمع، وخادمة للرجل في م له فحسب، بل كانت تساهم بدورها في عملية الإنتاج، بما تقوم به من أعمال يدوية، كالغزل، والنسيج، ومثل ذلك ما جاء في سيرة الفقيه أبي بكر بن هذيل، الذي كان يعيش من كد زوجته، التي كانت تشتري الكتان من السوق فتغزله، وتنسجه على هيئة ثياب ثم تبيعها، فما كان فيها من فضل تقوتا به"[2]، وقد نستنتج من هذه الرواية، أن الرجل كان لا يرى بأسا من أن تخرج المرأة إلى السوق، فتبتاع وتشتري ما أرادت، طالما أن ذلك لا يخرج عن الآداب العامة، وما تعارف عليه الناس.

واشتغلت بعض النسوة في المتاجرة بالرقيق، فقد ورد في هذا الصدد "أن عبيد الله المهدي حينما عزم على شراء خادم لولده القائم، اشترى هذا الأخير من امرأة من أهل سجلماسة"[3].

وقد أدى الفقر ببعض النسوة، وبخاصة ممن ليس لهن معيل، أو قيم يقوم بأمرهن إلى الخروج إلى الأسواق بخصلات من الشعر لبيعها، لشراء ما يحتجن إليه في منازلهن من طعام، وكسوة، وأواني، وما إلى ذلك، فقد أورد الدباغ[4] في سيرة أبي عمرو هاشم بن مسرور

---

(1) المالكي، رياض النفوس، ج2، ص398.

(2) نفسه، ص50.

(3) انظر اليماني، سيرة الحاجب جعفر، ص122.

(4) معالم الإيمان ، ج2، ص236.

التميمي (ت307هـ/919م)، الرجل الصالح، "كان يقف بالعشي بسوق الغزل، فإن رأى امرأة خرجت بخصلة، فيقول لها: ما دعاك إلى بيع هذه، ألا تركتيها حتى تكملي عليها، فإن قالت: أنا مضطرة، بكى حتى تخضل لحيته، وذهب معها، ليرى م لها، فيبعث إليها من القمح والزيت ما يقوم ا، ويشتري لها من الكتان، ما يراه صلاحا لها".

واهتمت المرأة بمجال العلم والمعرفة والأدب، فكانت نساء كتامة يشهدن ويسمعن الحكمة عند أبي عبد الله الشيعي، حتى أن منهن من بلغت مرتبة الداعية في المذهب الإسماعيلي، مثل أم موسى بنت الحلواني، حسب ما أورد القاضي النعمان[1].

ومن جهة أخرى كان للمرأة دور إنساني واجتماعي، ومما ورد في هدا الشأن أن امرأة من أتباع أبي عبد الله الشيعي، "كان لها مال فأنفقته في الجهاد، وكانت تصنع بيدها الطعام للمجاهدين وضعفاء المؤمنين، حتى أن يديها كانتا تدميان من الطحن، وعلاج الطعام لهم"[2].

وتدخلت المرأة في شؤون الحكم والسياسة، وكان رأيها مسموعا، فقد اعترضت أم القائم ولد الخليفة عبيد الله المهدي، على هذا الأخير، حينما أراد تعذيب الفقيه المالكي سعدون بن أحمد الخولاني (ت324هـ/935م)، بقولها: "تأتي إلى رجل صالح، ولي من أولياء الله سبحانه وتعالى، تفعل به هذا؟ أما تخشى أن يدعو على ولدك فيهلك؟ فأمر بترك سبيله، وأزال القيود من رجليه.."[3].

---

(1) الافتتاح، ص132.

(2) القاضي النعمان ، المصدر السابق , نفس الصفحة.

(3) المالكي، رياض النفوس، ج2، ص259.

ب- مراسيم الدفن:

وعبرت الرعية في المغرب الإسلامي عن أشجا ا وأحزا ا لفقدان الأهل، والأقربين، والأصحاب، برفع الأصوات بالبكاء، والنواح عند قبور موتاهم، وقد شهدت جنائز العلماء والصالحين حضور الحشود الغفيرة من المعزين، الأمر الذي دل على شدة ارتباط الناس ذه الفئة من ا تمع، ولعل ما ورد في بعض المصادر في هذا الشأن يقيم الدليل على ما ذهبنا إليه، فحينما توفي الفقيه المالكي جبلة بن حمود سنة 297هـ/909م "حضر جنازته خلق من الناس"[1].

وقد أشار الدباغ[2] إلى أن أهالي تونس نصبوا سارية كبيرة عند قبر الرجل الصالح أبي عمرو هاشم بن مسرور التميمي، واتخذوا منه مزارا".

وعبر الخلفاء الفاطميون عن جزعهم لفقد موتاهم، فأذنوا للناس في البكاء عليهم في المدن والبوادي، ومما يبين شدة حزن القائم بالله إثر وفاة والده المهدي بالله، ما رواه "القاضي النعمان" في هذا الصدد، حيث أورد "وأذن في البكاء عليه، وواصل الحزن لفقده، وأدامه من بعده أيام حياته، لم يرقد سريرا، ولا ركب دابة، ولا توطأ مهادا، ولا خرج من باب قصره أسفا عليه، وترددا لذكره"[3].

وكانت مصائب الموت عند الخلفاء، فوائد عند بعض المرتزقة من الشعراء ، بل مظهر من مظاهر المنافسة بينهم في قول المراثي في سبيل الحصول على الهبات والجوائز، فقد نظم عثمان بن سئيل الصيقل القيرواني أبياتا من الشعر رثي فيها الخليفة عبيد الله المهدي، إذ جاء في مطلعها[4]:

وهت مرر الصبر فانحلت   ورثت عرى الحزم فاجتثت

وكيف العزاء وقد خددت   خدود الخرائد واربدت

---

(1) المالكي، المصدر السابق، ص26.

(2) معالم الإيمان ، ج2، ص238.

(3) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص331.

(4)انظر الداعي إدريس القرشي ، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، من عيون الأخبار، ج5، ص77.

وقد ى الفاطميون الناس عن النواح والعويل على موتاهم، وأصدروا في ذلك الأوامر والتوقيعات، لأن النياحة[1] على الموتى باعتقادهم من أفعال الجاهلية، فقد جاء هذا النهي من المنصور بالله لابنه المعز لدين الله، حيث أورد "القاضي النعمان" في ذلك: "كان فيما أوصاني فيه المنصور بالله- عليه السلام- عند وفاته أن قال لي: دع عنك ملازمة قبري، والاختلاف إليه، فإن ذلك يبعث الحزن، ولا يؤدي إلى غاية من الحزم، وإنما يفعله الجهال من الرجال"[2].

وعلى الرغم من أن هذه الآراء الإسماعيلية الاجتماعية، كانت تقضي بمنع الصراخ والعويل خلف الميت، إلا أن ذلك لم يردع بعض النسوة من ورود المقابر، والنوح على موتاهن، ومما روي في ذلك أن أبا ميسرة الفقيه، كان إذا سمع نواح النساء في مقبرة باب نافع، وهو في بيته ينوح وينتحب، ويندب نفسه"[3]، ولعل هذه الرواية تفيد- بلا شك- أن السلطات الفاطمية على عهد المنصور بالله لم تتمكن إلى حد ما من القضاء على هذه العادة، وهذا الأمر يبرر محاولات الخليفة المعز لدين الله المتكررة للقضاء عليها، بتكليف أعوان لمراقبة النائحات، وعقا ن بالضرب، أو الزج م في السجون لسنوات طويلة، وإلى غير ذلك من أساليب الردع[4].

وكانت تقاليد الدفن عند الفاطميين، تقتضي أن يتولى ولي العهد دفن الخليفة دون جميع الناس، وأن لا يحضر مراسيم دفنه، إلا من كان من المقربين وخاصة رجال الخليفة، فحينما عزم القائم بأمر الله على دفن المهدي اختار لشهود مراسيم الدفن جوذرا، لمكانه من الخليفة ومن نفسه، فقال له: "يا جوذر إنه لا يحل للحجة بعد الإمام، أن يدفن الإمام حتى يقيم حجة لنفسه، ولم يحل لي ذلك حتى أقيم حجتي"[5].

---

(1) من ناح، ينوح، نياحة، وناحت المرأة فهي نائحة، ونواحة، والنوائح: هم النساء إذا اجتمعن على الميت في نياحة، ابن منظور، لسان العرب، مج2، ص627.

(2) ا الس والمسايرات، ص131.

(3) وقد ذكر هذه الرواية، الدباغ في "معالم الإيمان" ج2، ص369.

(4) انظر القاضي النعمان، المصدر السابق، ص535.

(5) الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، ص39.

وأبدى الفاطميون تمسكهم بمظاهر الأ ة والعظمة، حتى في اختيار مكان دفن موتاهم، فإذا ما توفي خليفة، فإنه يدفن في قصره، دون مقابر عامة الناس، تعظيما لسلطانه؛ فحينما توفي الخليفة المنصور بالله، في سنة 341هـ/952م دفن في قصره "بصبرة"[1].

وبالغ الفاطميون في تقديس الخلفاء، فكانوا يحملون توابيت موتاهم معهم أينما حلوا، فقد أشار "المقريزي"[2]، إلى أن المعز لدين الله، حينما خرج من المغرب الإسلامي، متوجها إلى مصر، حمل معه توابيت آبائه المهدي والقائم والمنصور، وكان ذلك في سنة 362هـ/972م".

---

(1) ابن أبي دينار، المؤنس، ص59.

(2) الاتعاظ ، ج1، ص134.

• :

تعرض أهالي المغرب الإسلامي أثناء الوجود الفاطمي إلى محن وأزمات، نتيجة للحروب والفتن، وتوالي الكوارث الطبيعية، التي كانت تحدث من حين لآخر، كالقحط والزلازل والآفات، والتي كانت غالبا ما تفتك بأرواح العديد من السكان، وأمام هذه الأوضاع المزرية التي طبعت البلاد طيلة فترة حكم الفاطميين، نما شعور عند بعض الأهالي بضرورة ترك أوطا م، والبحث عن مناطق أخرى تكون أكثر أمنا واستقرارا.

أ- الحـروب:

الملاحظ أنه مع ابتداء أمر أبي عبد الله الشيعي في بلاد المغرب الإسلامي، بدأت سلسلة من الحروب والاضطرابات في بلاد كتامة بين مؤيدين للدعوة الجديدة ومعارضين لها، غير أن داعي الفاطميين استطاع، وفي فترة وجيزة نسبيا أن يحسم الصراع لصالحه، فبعد أن استولى على أغلب المناطق التي كانت خاضعة لنفوذ الأغالبة(1)، وتقويض سلطة الرستميين، بما في ذلك عاصمتهم تاهرت(2)، أخذ في تتبع قبيلتي صدينة وزناتة بالقتل والنهب، فأحرق مد م وقراهم عن آخرها، وما إن حلت سنة 298هـ/510م، حتى تمكن أبو عبد الله الشيعي من بسط نفوذ الفاطميين في البلاد(3)، أو على الأقل، كمرحلة أولى، لتتواصل انتصاراته العسكرية بعد ذلك(4)، كما سيأتي بيانه.

وليس يعينا رصد كرونولوجيا الأحداث السياسية والعسكرية التي شهد ا بلاد المغرب الإسلامي في هذه الفترة، بقدر ما يعنينا حجم الأضرار والخسائر المادية والبشرية، التي أعقبت ذلك، وفي سبيل توطيد ملك الفاطميين.

لم تمثل حركات المقاومة، والاسترداد التي تبناها أبو يزيد النكادي، ومن ناصره من الزناتيين ضد الحكم الفاطمي، إلا محاولات تمرد يائسة، لأ ا كانت تفتقد إلى الخطة والهدف،

(1) الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ،ج5، ص138.

(2) الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، ج1، ص94.

(3) ابن عذاري، البيان، ج1، ص155.

(4) Laoust (H): Les schismes dans l'islam, Paris, p.143.

بدليل أ ا لم تجلب للبلاد، إلا الخراب والقتل والتشريد، فقد ورد في بعض المصادر في هذا الشأن: "أن عدة ما خربت من القرى على يديه في إفريقية ثلاثون ألف قرية"[1]، وبإمكاننا أن نتصور حجم الأضرار التي لحقت بالعمران من تخريب ودمار، وخاصة، وأن هذه الحروب التي خاضها الجيش الفاطمي من جهة والزناتيين من جهة أخرى، استخدم فيها، الطرفين كل الوسائل الحربية، بما في ذلك الدبابات والمنجنيقات، وغيرها من وسائل وآلات الحصار"[2].

أما عن الخسائر في الأرواح، فيبدو أ ا كانت ثقيلة، حتى أن بعض المصادر ذهبت إلى احصاء "عشرة آلاف قتيل"، من الذين سقطوا في مدينة سوسة وحدها، و من جراء الحصار الذي ضربه جيش أبي يزيد الزناتي على المدينة سنة 333هـ/544م[3]. ولا شك أن هذا العدد من القتلى كان أضعافا كثيرة، لاسيما في المدن الأخرى التي شهدت مواجهات عسكرية مماثلة بين الطرفين[4].

إن الحروب التي شهدها المغرب الإسلامي وبخاصة في هذه الفترة يمكن إدراجها في إطار الغزو المنظم، إذ كان المنتصر فيها غالبا يفوز بالأموال والمواشي والسبي، ومثل ذلك ما حدث في سنة 335هـ/946م، حينما اجتاح الخليفة المنصور بالله بجيشه ديار زناتة، فسبى نساءهم وذراريهم، وأخذ ما لهم من الخيل والجمال، وصنوف الحيوان، ما يفوق الإحصاء، ويستغرق الاستقصاء، على حد تعبير ابن حماد[5]، هذا وقد اتبع أبو يزيد النكارى الأسلوب نفسه، عندماهاجم أهالي مدينة تونس، حيث أورد "ابن أبي دينار" في هذا الصدد: "و ب مدينة تونس، وأخذ منها ألف خابية زيتا، غير الأموال والعبيد"[6].

وقد أشار "القاضي النعمان" إلى الكيفية التي طبقها جيش أبي عبد الله الشيعي لاخد مدينة "بلزمة" فأورد بشأ ا "وكان يخرج إليهم العساكر في أوان زراعتهم، فيأتي عليها، فعل ذلك م

[1] الدرجيني، المصدر السابق، ص101.
[2] انظر ابن الأثير، الكامل ، ج6، ص308.
[3] نفس المصدر، ص309.
[4] انظر المسعودي ، التنبيه والإشراف، تصحيح ومراجعة، عبيد الله إسماعيل الصاوي، ص289.
[5] أخبار ملوك بني عبيد وسير م، ص32.
[6] المؤنس ، ص56.

ثلاث سنين، حتى انقطع الطعام من أيديهم"[1]، وإذا علمنا أن قوام حياة أهل هذه المدينة، كان يرتكز بخاصة على ما يتم إنتاجه من زروع"[2]، أمكننا بعد ذلك القول، بأن سياسة الجيش الفاطمي، كانت تستهدف تجويع الأهالي، ومن ثم يسهل عليه إخضاعهم، فتضيق أحوالهم الاقتصادية، ويكون الهالك منهم بالجوع أكثر من الهالك بالقتل.

ومما كان يرفع من معاناة الرعية، هي أعمال السلب والنهب، التي كان ينتهجها بعض قواعد الفاطميين ضدها، فاتخذوا من أموال الناس، وسيلة يتقربون ا إلى الخلفاء، فقد ورد في بعض المصادر الإسماعيلية وصف حال ذلك القائد الذي افتتح مدينة، ولم يصب ا غنائم وأموالا، فأغتم لذلك غما شديدا ، وقال لأصحابه: "هذه مدينة مذكورة قد افتتحناها عنوة، ونحن كما ترون لم نجد فيها مالا نقابل به ولي الله، ونبقي به وجوهنا عنده، وإذا لم نفعل ذلك صرنا في حد التهمة"[3].

ولقد عانى السكان في بعض المدن تحت وطأة الحصار المفروض عليهم، سواء من قبل جيش الفاطميين، أو من طرف جيش أبي يزيد الزناتي، إذ تجلت نتائجه في تدهور أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية، لما يقع من تخزين الأقوات، التي كانت تذهب بصفة مباشرة لتموين الجيوش، على حساب معانا م ، فتندر مع ذلك المواد الغذائية، في الأسواق، وحتى وإن وجدت في بعض الأحيان، فإن أسعارها المرتفعة تفوق قدر م الشرائية، وبخاصة منهم أصحاب الدخل الضعيف، فلا غرو، أن يقع بعضهم فريسة للجوع، ألم يكتب ابن حمدون- عامل المسيلة إلى أبي القاسم الخليفة الفاطمي بشأن الانتفاع من ثروات المدينة، فيشير إليه، هذا الأخير، إلى ادخارها إلى حينها!؟" [4].

---

[1] الافتتاح، ص178.

[2] انظرابن حوقل، المصدر السابق، ص91.

[3] القاضي النعمان، ا الس والمسايرات، ص493.

[4] انظر ابن الأثير، الكامل، ج6 ، ص238.

وقد جاء في بعض المصادر تصوير شدة الحصار الذي ضربه أبو يزيد مخلد بن كيداد على مدينة المهدية، وما أصاب الأهالي من الجوع الشديد بسببه، فأوردت في هذا الصدد: "وعظم البلاء على الرعية، حتى أكلوا الميتة والدواب والكلاب"[(1)].

ب- المجاعـات و الأمراض المستوطنة:

وبسبب الحروب والاضطرابات الداخلية التي شهد ا بلاد المغرب الإسلامي، توالت عليها سنوات من ا اعة العامة، أودت بحياة الكثير من السكان، وقد علق بعض المؤرخين على ذلك فقال: "حتى أ م كانوا يعجزون معها عن دفن موتاهم"[(2)]، هذا وقد وقف "ابن حوقل"- كشاهد عيان- على سوء الأحوال الاجتماعية التي آلت إليها الرعية، فحكى في وصف مدينة "تاهرت" فقال: "وقد تغيرت تاهرت عما كانت عليه، وأهلها، وجميع من قار ا من البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم، ودوام القحط، وكثرة الموت والقتل"[(3)].

ومن جهة أخرى أورد "ابن عذاري" أنه في سنة 303هـ/915م، "كان بإفريقية وما والاها وباء كثير، فمات من قريش القيروان؛ أبو المصعب بن زرارة العبدري، وحماس القاضي بن مروان بن سماك الهمداني، وكان فقيها زاهدا، ومات محمد بن عبادة السوسي، ومات خلف بن معمر بن منصور، من الفقهاء العراقيين"[(4)]، وربما لجأت السلطة إلى اتخاذ إجراءات وقائية عن حدوث الوباء، كأن تمنع الناس من الدخول إلى المدينة الموبوءة، أو الخروج منها، من أجل احتواء الداء، والحد من انتشاره في المناطق ا اورة"[(5)]، أما إذا كان الوباء عاما، فإنه يكون أشد فتكا بالسكان، وتكون عواقبه وخيمة لاسيما في المدن ذات الكثافة السكانية الكبيرة، ومثل ذلك "الطاعون" الذي عم البلاد في سنة 307هـ/919م، حتى أنه بلغ إلى حدود مصر، حسب ما أشار إليه ابن عذاري"[(6)].

---

(1) ابن أبي دينار، المؤنس، ص57.

(2) السلاوي الناصري ، الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، ج1، ص191.

(3) صورة الأرض، ص93.

(4) البيان، ج1، ص173.

(5) Letourneau (R): les villes musulmanes de l'Afrique du nord, p.p. 40.

(6) البيان ، ج1، ص181.

ولم يكن وباء "الطاعون" يشكل ـديدا على حياة سكان المغرب الإسلامي فحسب، بل هناك داء آخر، لا يقل خطورة عن سابقه، ألا وهو "داء الجذري"، فقد ورد في بعض المصادر، قصة ذلك الشيخ المسن- من سكان المنستير- كانت له بنية ابتليت في عينيها ـذا الداء الخبيث، حتى أصبحت معه لا ترى قليلا ولا كثيرا"[(1)]، كما وانتشر بين السكان، "داء الإسهال"، وممن أصيبوا به، نجد الخليفة المنصور بالله الفاطمي، حيث أدى إلى وفاته في سنة 341ه أو 339ه/952م أو 950م، حسبما ذكره ابن حماد[(2)].

ومما ساعد على ارتفاع عدد الوفيات في بلاد المغرب الإسلامي، سوء التغذية، والأمراض الوبائية، التي كانت تفاجئ السكان من حين لآخر، والأمراض المستوطنة، وقلة الوعي الصحي في أوساط العامة من الناس، لاسيما الطبقة الفقيرة منهم، ناهيك عن قلة النظافة، نتيجة للظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تعرضوا لها، وتذبذب الأحوالهم المعيشية، ويبدو أن مما زاد الأمر سوءا وتعقيدا، على عهد الفاطميين هو غياب مخطط صحي وقائي، نتيجة قلة المؤسسات الصحية، من بيمارستانات للمعالجة والتمريض عند وقوع مثل هذه الأوبئة، ناهيك عن قلة الأطباء المتخصصين في هذا الميدان، ويكفي أن نشير في هذا الصدد، إلى أن مدينة القيروان كحاضرة للفاطميين، اشتهر ـا طبيبان فقط، ويتعلق الأمر بالطبيب "إسحاق بن سليمان"[(3)]، وأبي جعفر بن إبراهيم بن أبي خالد، المعروف "بابن الجزار"، هذا الأخير، الذي كرس حياته في الطب، لخدمة أهالي القيروان، أغنيائهم، وفقرائهم، دون أن يقبض من أحدهم أجرة"[(4)].

[(1)]انظر: المالكي، رياض النفوس، ج2، ص239.

[(2)]اخبار ملوك بني عبيدة وسير ـم ، ص47.

[(3)] طبيب يهودي، ولد في مصر، وارتحل إلى القيروان، واستقر ـا، خدم الفاطميين بصناعة الطب، وعاش زمنا طويلا، صنف كتبا كثيرة في الطب، أهمها: "كتاب الحميات"، و"الأغذية والأدوية"، أنظر: ابن أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص58، الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج23، ص625.

[(4)] ابن حجل، طبقات الأطبياء والحكام، ص89، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج2، ص136، ابن أصيبعة، المصدر السابق، ص60.

جـ- الهجرة الداخلية والخارجية:

وبطبيعة الحال، فقد أدى هذا الوضع السياسي الاجتماعي المتأزم إلى بروز ظاهرة خطيرة في ا تمع، تتمثل في الهجرة الجماعية للسكان، سواء إلى المناطق القريبة الآمنة، أو إلى العالم الخارجي، وأخذت هذه الظاهرة في الاستفحال والتوسع، كلما تضاعفت الحملات العسكرية الفاطمية، التي كانت توجه لإخماد الثورات الداخلية المناهضة للحكم الفاطمي.

ففي سنة 305ﻫ/917م، فر قوم يعرفون ب "بني صالح" إلى بلاد الأندلس، بعد تعرض مدينتهم "نكور" إلى حملة عسكرية عنيفة، قادها مصالة بن حبوس ضدهم، لأ م رفضوا طواعية الإذعان لسلطة الفاطميين، فقتل رئيسهم"[1]. كما هاجر الكثير من أهالي"المهدية" إلى مناطق بعيدة، مثل جزيرة صقلية، ومصر، وبلاد الروم، بعد أن أ كهم طول الحصار، الذي فرض عليهم، من طرف جيش أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي ، والتمسوا عجزا من حماية الفاطميين لهم، أمام آلة القتل والتنكيل، التي استهدفتهم"[2].

وذكر "جودت عبد الكريم يوسف" بأن سقوط مدينة "تاهرت" على يد أبي عبد الله الشيعي في سنة 296ﻫ/909م، تمثل البداية الفعلية، لمثل هذه الهجرات الجماعية التي شهد ا بلاد المغرب الأوسط[3]، والمغرب الإسلامي ككل، وقد بدأت أولى الهجرات مع أسرة أبي يوسف يعقوب- آخر الأئمة الرستميين- بعد سقوط إمار م، متوجهين نحو الصحاري، وبخاصة نحو وارجلان، في الجنوب الشرقي من تاهرت"[4]، وإلى مدينة جربة وجبل نفوسة[5].

ومهما تكن الدوافع الحقيقية التي تكمن وراء الصراع القبلي بين كتامة وزناتة، أو بين زناتة وصنهاجة، إلا أن نتائجه كانت في معظمها دامية، لذلك، فإن جماعات كثيرة من السكان رأت في الهجرة إلى المدن التي أسسها الفاطميون حديثا ملاذا آمنا لها، أو بالأحرى طمعا منهم

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ص73.

(2) انظرالمقريزي ، الاتعاظ، ج1، ص80، ابن الأثير، الكامل، ج6، ص306.

(3) الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط، خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م)، ص449.

(4) الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب ،ج1، ص104، أبي زكرياء، سير الأئمة وأخبارهم، ص21 وما بعدها.

(5) Bel (A): la religion musulmane en berbérié, T1, Paris, 1938, p.149.

في حماية السلطة، فقد هاجرت أعداد كبيرة من الأهالي إلى مدينة "المهدية" بعد تحصينها، فرارا من تلك الحروب الطاحنة، التي استمرت بين الزناتيين والفاطميين، لاسيما في القيروان، حيث لم يكن بين سكان هذه المدينة سوى عدد قليل ممن كانوا يعطفون على عقيدة الشيعة، على حد تعبير موريس لومبار[1].

وقد أدى الصراع المحتدم بين القبائل الزناتية والصنهاجية، حول السيادة على المغرب الأوسط، إلى هجرة بعض الاهالي من (المسيلة): "المسيلة، و"طبنة"، و"حمزة"، إلى مدينة "آشير" طلبا للأمن والسلامة"[2].

والملاحظ أن السلطة الفاطمية كانت تتدخل أحيانا لتهجير بعض القبائل من مضار ا، وبخاصة تلك التي ترى فيها خطرا يهدد استقرارها، ومثل ذلك، ما قام به الخليفة القائم بأمر الله حينما أمر بتهجير قبيلة "بني كملان" الزناتية من موطنها الأصلي بالمسيلة إلى فحص القيروان"[3]، وقد يكون جير بعض السكان لأسباب عمرانية بحتة، ولا علاقة لذلك بالأوضاع الأمنية، ومما جاء في هذا الصدد: "أن المنصور بالله الفاطمي، فرض على كتامة أربعة عشر ألف بيت يوافون المنصورية، فيسكنون فيها"[4]، وكذلك فعل المعز لدين الله الأمر نفسه، إذ قام بتعبئة قبيلة كتامة، للرحيل معه إلى مصر"[5].

ويتضح مما سبق، مدى فداحة الأضرار التي أحاطت بالسكان، والحيوان، والاقتصاد وعمق تأثيرها على الحياة بالمدن والقرى، والتي يتحمل الإنسان قدرا كبيرا في مسؤوليتها، هذا من جهة، أما من جهة أخرى، فرغم أن الإنسان عموما في بلاد المغرب الإسلامي أصبح أكثر تعودا على رؤية الكوارث الطبيعية، دد حياته، وبيئته غير أنه ما يزال يتعامل معها بنوع من اللامبالاة، وعدم المسؤولية.

★ ★ ★

---

[1] الإسلام في مجده الأول، ص99.

[2] النويري، اية الأرب، ج24، ص161، مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، ص215.

[3] انظر ابن الأثير، الكامل ، ج6، ص190.

[4] الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، من عيون الأخبار، ج5 ص288.

[5] ابن خلدون، العبر، ج6، ص148.

الخاتمة

الخاتمة :

قبل استعراض أهم النتائج، التي تمخضت عنها الدراسة، لابد من التذكير بالهاجس الكبير الذي ظل يراودني طوال فترة البحث، والمتمثل أساسا في قلة المصادر التي تناولت الأوضاع الاجتماعية لبلاد المغرب الإسلامي أثناء حكم الفاطميين وندرة الدراسات الاجتماعية المتعلقة ـذه الفترة الحاسمة من التاريخ الإسلامي، ورغم كل هذه الصعوبات لم يكن سبيلنا إلا محاولة القراءة والتعمق في تناول المادة الخبرية، التي أسعفنا بجمعها من ثنايا المصادر والمراجع.

ومهما يكن من أمر، وبعد إطلاعنا على ما تيسر من مصادر التي تناولت بالدراسة موضوع الوجود الفاطمي في بلاد المغرب الإسلامي، وانعكاساته على الأوضاع الاجتماعية للسكان، توصلنا إلى جملة من النتائج لعل أبرزها:

- إنه لم يكن من محض الصدفة والمفارقة أن يختار الفاطميون بلاد المغرب الإسلامي، البعيد جغرافيا عن المشرق لنشر أفكارهم، المتمثلة في المذهب الإسماعيلي، بل إن التحضير لهذا المشروع الدعوي ابتدأ بسلمية، وجهزت لإنجاحه الأموال والرجال.

- إن اختيار قبيلة كتامة دون سواها لاحتضان الأفكار الإسماعيلية، لا يمكن تفسيره إلا بوجود فترة ركود سياسي وحضاري كانت تمر ـا هذه القبيلة، وقد استغل الفاطميون وصعها هذا، لتفعيل طاقا ـا الخاملة، خدمة لأغراضهم السياسية.

- لقد ظلت كل الوسائل الشرعية والغير الشرعية مسموح ـا في نظر السلطة الفاطمية في سبيل تحقيق هدفها الأكبر، وهو حكم العالم الإسلامي، وقد اضطرت في كثير من مراحل حكمها للمغرب الإسلامي، أن تتنازل عن بعض المكتسبات لصالح قبيلة دون أخرى، الأمر الذي أدى إلى تنافس قبلي حاد على السلطة، أفضى إلى أحداث دموية، لاسيما بين كتامة وزناتة.

- وأثناء بحثنا لعلاقة القبائل المغربية مع السلطة الفاطمية، استنتجنا، أن تحسين الوضع الاجتماعي لقبيلة بعينها، مشروط بما تقدمه هذه الأخيرة من خدمات للسلطة، كأن تحرز

انتصارات عسكرية ضد الخصوم، أو أن تعلن ولاءها المذهبي الإسماعيلي، وقد لاحظنا ذلك مع قبيلة "كتامة"، و"صنهاجة"، ثم "مغراوة" الزناتية فيما بعد.

- لقد أدت سياسة العنف والتقتيل التي اتبعها الفاطميون ضد فقهاء أهل السنة، إلى انقسام هؤلاء على أنفسهم؛ بين من يعتقد بضرورة مصانعة السلطة- وفق مدأ "التقية"- للحفاظ على مصالح الرعية، وبين مناهض لها، في حين فضل بعضهم حياة العزلة، والتفرغ إلى العبادة والكسب، على غرار الفقيه "محمد يونس بن محمد الورداني".

- ومن خلال استعراضنا لبحث المسائل الشرعية، التي كثر حولها الجدال بين أهل السنة، والشيعة الإسماعيلية، استنتجنا أن هذا الخلاف كان أحد أسباب الطلاق بينهما، ففي الوقت الذي أراد فيه الشيعة تكييف هذه المسائل بما يوافق مذهبهم الإسماعيلي، اعتبر أهل السنة أن التنازل عنها مروق عن الدين!.

- وأمكننا الربط بين زيادة الطموح السياسي للقبائل المغربية في النفوذ، ومحاولة الخلفاء للاستكثار من عنصر العبيد، كي تكبح جموحهم السلطوي، حفاظا على مصالحها.

- لقد حظي العبيد لدى الفاطميين بمكانة اجتماعية مرموقة فاعتلوا أخطر المراتب في أجهزة الحكم، وافتكوا كل حقوق "المواطنية"، ولعل أخطر قرار قضائي عزز من نفوذ هؤلاء، القانون الذي سنه المعز لدين الله الفاطمي، والذي بموجبه، "يجوز للعبيد أن يتوارث بعضهم بعضا"، تماما كالأحرار.

- لقد أفرزت الطبقية في ا تمع الفاطمي، بروز نمطين متباينين من حيث المستوى الاجتماعي والاقتصادي، فهناك فئة مترفة تمتلك الأموال والقصور والثروات.. مثلها: (الخلفاء، والأمراء، والقضاة، والدعاة، والجند..)، وفئة محرومة سخرت ثروا ا، لخدمة مصالح الفئة الأولى، ومثلها: (الفلاحون، صغار التجار، الصناع، الحرفيون، الفقراء..).

- واتضح أن التفاوت الطبقي بين الفئات الاجتماعية انعكس حتى في أحوال الطعام واللباس، فبينما تأنق الخلفاء ورجال الدولة من الرسميين في تناول الأطعمة، والتزين بالثياب

الفاخرة والمستوردة من الخارج، اكتفى عامة الناس بالضروري منها، بل لمسنا أن بعض الفئات الفقيرة كانت تموت من الجوع.

- كما لاحظنا أن المراسيم الاحتفائية في المجتمع (زواج- ختان- أعياد دينية...) لم تخرج عن إطار الاحتفالات، التي كان يشهدها العالم الإسلامي آنذاك.

- أما عن عادات وتقاليد بصورة أشمل، فقد اصطبغت في معظمها بالصبغة الإصلاحية كالكرم، وحسن الجوار، والإحسان إلى الفقراء واليتامى..، في حين ظلت بعض العادات التي لا ترقى إلى المستوى الاجتماعي اللائق متأصلة في مناطق محدودة مثل: المطالبة بالثأر، وظاهرة اللواط، وتعليق التمائم، ومجالس اللهو والمجون...

- وتمتعت المرأة عموما بكل حقوقها المادية والاجتماعية، كأم ترعى الأولاد، وتساعد زوجها في العمل، إلى تاجرة في السوق تبيع وتشتري، إلى طالبة تنشر مجالس العلم، والسياسة.

- ثم أن الحروب والفتن التي تعرض لها السكان في ظل حكم الفاطميين لبلاد المغرب الإسلامي، أزهقت أرواح الكثيرين منهم، فسلبت أموالهم، وأدت إلى وقوع المجاعات والأوبئة بينهم، مثل وباء سنة 303هـ/915م، وأيضا وباء سنة 307هـ/919م، واستنتجنا أن نقص الخدمات الصحية في هذا المجال زاد من ارتفاع عدد الوفيات.

- كما جر هذا الوضع الاجتماعي الاقتصادي المتدهور إلى بروز ظاهرة الهجرة في أوساط السكان، هروبا من الواقع المر، الذي أصبح يطبع حياتهم اليومية.

* وعلى الرغم مما وقفنا عليه من نتائج، حول الأوضاع الاجتماعية لبلاد المغرب الإسلامي في ظل حكم الفاطميين، إلا أن هذه الدراسة تبقى محاولة متواضعة، فأعمال الإنسان مهما كانت لا تخلو من نقص، ويعلم الله مدى الصعوبات التي واجهتنا من أجل أن نخرجها إلى النور، ولكن بحول الله ومنه تحملنا مشقة كل ذلك بعزم وثبات، راجين منه تعالى أجر الاجتهاد.

ثبت المصادر والمراجع

1-المصادر:

-القران الكريم على رواية ورش ، مؤسسة علوم القران .

-ابن الآبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله أبي بكر القضاعي (ت 658 ه / 1260 م) الحلة السيراء ، ج1 . تحقيق ، حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، تونس 1968 م .

- ابن أبي دينار ،أبو محمد أبي القاسم الرعيني (1092 هـ /1981 م) ،المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ،تحقيق محمد الشمام ،المكتبة العتيقة ،تونس 1967م.

- ابن أبي اصيبعة ،موفق الدين أبي العباس احمد بن القاسم بن الخليفة بن يونس الخزرجي (ت 668 هـ/1962 م) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ،ج3 ، دار الثقافة لبنان ،1981 م.

- ابن الأثير ،أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (تـ 628هـ/1230 م) ،الكامل في التاريخ ،ج6 ،دار الكتاب العربي ،بيروت ،1949م.

- ابن الخطيب ،لسان الدين السليماني (776هـ/1374م) ،أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ،نشر احمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني،تحت عنوان "تاريخ المغرب في العصر الوسيط" ، دار البيضاء ،1964م.

- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق (تـ 385هـ/995م)، الفهرست، تعليق، الشيخ إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، 1994 م.

- ابن الفقيه، أبو بكر بن محمد (تـ بعد 290هـ /904-905م) مختصر كتاب البلدان، ليدن1976م.

- ابن جلجل ،أبو داود سليمان بن حيان الأندلسي (تـ 384هـ/994م) طبقات الأطباء والحكماء ،تحقيق فؤاد سيد ،مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية،القاهرة1955م.

- ابن حزم ،أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي(تـ 456هـ/1064م) جمهرة انساب العرب ،تحقيق هارون عبد السلام ،دار الفكر العربي ،بيروت 1964م.
- ابن حماد ،أبو عبد الله بن علي الصنهاجي (تـ 628هـ /1230م) ،أخبار ملوك بني عبيد وسير م ،مطبعة جول كاربو نيل،الجزائر 1935م.
- ابن حوقل، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت حوالي 300هـ /913م) المسالك والممالك، ليدن 1889م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ)
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6-4، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1967م.
* المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، د، ت.
- ابن خلكان ،شمس الدين أبو العباس احمد بن إبراهيم بن أبي بكر (تـ 681هـ /1283م) وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان ،دار صادر ،بيروت 1977م.
ابن سلام، أبو عبيد القاسم (تـ 224هـ/ 838م)، كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، منشورات مكتبة الكليات الأزهرية ودار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1981م.
- ابن عبد ربه ،أبو عمر احمد (تـ 328هـ /940م) العقد الفريد ،ج6 ،تحقيق احمد أمين واحمد الزين إبراهيم الابياري ،القاهرة 1962م.0
- ابن عذاري ،أبو العباس بن احمد بن محمد المراكشي (تـ 712هـ/ 1312م) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،تحقيق ج ،س،كولان وليفي بروفنسال ،دار الثقافة 1980م.
- ابن قتيبة ،أبو محمد بن مسلم (تـ 276هـ/889م) أدب الكاتب ،مؤسسة الرسالة ،سوريا 1985م.

- ابن منظور ،محمد بن مكرم علي الأنصاري (تـ 711هـ/ 1311م) لسان العرب المحيط ،طبعة حديثة عن طريق بولاق ،الدار المصرية للتأليف والترجمة، د، ت
- ابو زكرياء ،يحيى بن أبي بكر (توفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر ميلادي):كتاب سير الأئمة وأخبارهم ،تحقيق إسماعيل العربي ،بن عكنون ،الجزائر 1984م.
- أبو العرب محمد بن تميم القيرواني (تـ 333هـ / 944م):كتاب المحن ،تحقيق يحيى وهيب الجبوري ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت 1988م.
- أبو الفدا ،أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله الحموي (تـ 560هـ/ 1166م): المغرب العربي من نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ،تحقيق محمد الحاج صادق 1938م.
- الاشبيلي ،أبو الخير (كان حيا في القرن السادس الهجري ،الثاني عشر ميلادي) ،عمدة الطبيب في معرفة لنبات ،ج2،تحقيق محمد العربي الخطاب ،مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 1990م.
- الاصطرخي ،أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي (تـ 346هـ / 957م):المسالك والممالك ،تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ،القاهرة 1961م.
- البكري،أبو عبيد الله بن عبد العزيز (تـ 587هـ/ 1094م).
- المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ،مكتبة المثنى ،بغداد ،د،ت.
-* معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع، ج3، تحقيق مصطفى السقا، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1949م.
- التيجاني ،أبو عبد الله محمد (تـ 717هـ / 1317م) رحلة التيجاني ،تحقيق حسن حسني عبد الله بن محمد ،تونس 1967م.
- الجوذري ،العزيزي (كان حيا في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) سيرة الأستاذ جوذر ،تحقيق محمد عبد الهادي شعيرة وكامل حسين ،دار الفكر ،القاهرة 1954م.
- الحموي –أبو عبد الله ياقوت (تـ 626هـ /1228م) :

* معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت 1990م.
- معجم الأدباء، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت 1977م.
- الخشني ،ابو عبد الله بن حارثة بن أسد القيرواني الأندلسي (تـ 699هـ/ 1299م) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ،ج2،المطبعة العربة التونسية ،تونس 1907م.
- الدرجيني ،أبو عباس بن سعيد (تـ 670هـ/ 1272م) ،طبقات المشايخ بالمغرب،ج1،تحقيق إبراهيم طلاي،مطبعة البعث قسنطينة 1974م.
- الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان (تـ 748هـ / 1347م):
* تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج23، تحقيق محمد عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي 1992م.
* العبر في أخبار من غبر، تحقيق فؤاد سيد، الكويت 1961م.
- الرقيق ،أبو إسحاق إبراهيم القاسم القيرواني (تـ 423هـ/ 1031م) تاريخ افريقية والمغرب ،تحقيق عبد الله العلي الزيدان وعزالدين عمر موسى ،دار الغرب الإسلامي 1990م.
- الشهر ستاني ، ابوالفتح بن عبد الكريم (ت 548هـ/1153م) الملل والنحل ،ج1،تحقيق محمد السيد الكيلاني ،دار المعرفة للطباعة والنشر ،بيروت 1980م.
- المسعودي أبو الفضل القاضي اليحصبي السبتي (ت 544هـ / 1149م) ترتيب المدارك وتقريب المسالك ،ج2،تحقيق احمد بكير محمود ،دار مكتبة الفكر ،ليبيا ،د،ت .
- الفيروز أبادي ،أبو العباس احمد بن علي الفزاري المصري (تـ 817هـ/ 1414م) القاموس المحيط (1-4) دار الكتب العلمية ،بيروت 1995م.
- القاضي النعمان ،أبو حنيفة بن محمد بن حيون التميمي المغربي (ت363هـ /974م) :
* رسالة افتتاح الدعوة ،تحقيق فرحات الدشراوي ،الشركة التونسية للتوزيع،تونس ،د،ت.

* ا الس والمسايرات ،تحقيق الحبيب الفقي وإبراهيم شبوح،ومحمد اليعلاوي ،الجامعة التونسية وكلية العلوم الإنسانية ،تونس 1978م.

القرطبي ،أبو عمر بن عبد البر النمري(463هـ/ 1070م) القصد والأمم في التعريف بأصول انساب العرب والعجم ،مطبعة السعادة ،القاهرة 1931م.

- القرشي ،عماد الدين بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن حاتم (872هـ/ 1467م) تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ،القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار ،تحقيق محمد اليعلاوي ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت 1985م.

- القزويني ،زكرياء بن احمد بن محمود (ت 682هـ/ 1283م) اثار البلاد واخبارالعباد ،دار بيروت للطباعة والنشر ،بيروت 1979م.

- القلقشدي ،أبو العباس احمد بن محمود (ت 821هـ/ 1413م) ،صبح الأعشى في صناعة الانشا،ج5،دار صادر ،بيروت 1915م.

المالكي ،ابو بكر عبد الله بن محمد (ت 474هـ/ 1081م) رياض النفوس في علماء القيروان وتونس وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ،تحقيق ،بشير البكوش واحمد العروسي المطوي ،دار الغرب الإسلامي للطباعة والنشر ،بيروت 1981م.

- الماوردي ،أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450هـ/1058م)،الأحكام السلطانية والولايات الدينية ،دار ابن قتيبة ، الكويت 1989م.

- المسعودي ، ابو الحسن علي بن يحي (ت 345 ه / 956 م) ، التنبيه والإشراف ، تصحيح ، عبد الله إسماعيل الصاوي ، دار الصاوي للطبع والنشر والتأليف ، القاهرة ، 1938 م .

- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد (ت 388 ه / 998 م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لندن، 1909 م.

-المقريزي ، تقي الدين أبو العباس احمد بن محمد (ت 845 ه / 1442 م) :

* اتعاظ الحنفا بأخبار الأمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ج1 لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، 1996 م .

* كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف (بالخطط المقريزية) ، ج1 ، مكتبة أحياء العلوم . د . ت .

- النويري ، شهاب الدين احمد عبد الوهاب (732 ه / 1332 م) ، اية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق ، حسين نصار ، 1983 م .

- اليماني ، محمد بن محمد (كان حيا في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر ميلادي) سيرة الحاجب ، جعفر ، نشر ، و ايفا نوف ، مجلس كلية الأدب ، الجامعة المصرية ، مج 4 ، ج1 ، القاهرة 1936 .

- ليون الإفريقي (975 ه / 1550 م) ، وصف إفريقيا ، تحقيق عبد الرحمان حميدة ، كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة سعود الإسلامي السعودي ، 1978 م.

- رسائل إخوان الصفاء وخلاف الوفاء، تقديم بطرس البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر 1983 م.

2/ المراجع العربية المعربة

- ابن أبي الضياف ، احمد (ت 1291 ه / 1845 م) ، إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الزمان ، ج1 ، الدار التونسية للنشر تونس 1976 م .

- ابن الحاج ، سليمان ، ثورة أبي يزيد ، دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة ، الجزائر 1997 م .

- ابن منصور، عبد الوهاب، القبائل المغربية، ج1، المطبعة الملكية الرباط 1968 م.

- بن حمدة ، عبد ا يد ، المدارس الكلامية بافريقية إلى ظهور الاشعرية مطبعة الغرب ، تونس 1986 م .

- بن عميرة محمد ، دورزناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي ، المكتبة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984 م .

- الجيلالي عبد الرحمان ، تاريخ الجزائر العام ، ج1 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 994 م .

- الزركلي ، خير الدين ، الإعلام (11 جزء) ، دار العلم للملايين ، بيروت، 1986 م .

- السلاوي ، أبو العباس احمد خالد الانصاري (ت 1315 ه / 1837 م) الاستقصاء لدول المغرب الأقصى ، ج1 ، تحقيق ، جعفر الناصري وخالد الناصري ، الدار البيضاء 1954 م .

- الصالح، صبحي النظم الإسلامية، نشأ ا وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت 1995 م .

- العبادي ، احمد مختار ، الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت 1971 م .

- ا ـدوب ، عبد العزيز ، الصراع المذهبي بإفريقيا إلى قيام الدولة الزيرية ، تقديم على الشابي الدار التونسية للنشر ، تونس 1975 م .

- الميلي ، مبارك بن محمد الهلالي ، تاريخ الجزائر الحديث والقديم ، ج2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب 1932 م .

- النيفر ، محمد، عنوان الأريب عما نشا بالمملكة التونسية من عالم واديب ،ج1، المطبعة التونسية ، 1889 م .

- الهذلول ، صالح ، المدينة العربية الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، 1994 م .

- أمين أحمد:

* فجر الإسلام، ج1، دار الكتاب العربي اللبناني بيروت 1975م.

* ضحى الإسلام، ج1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1962 م.

- برنيان ، أندر ي و أخر ، جزائر بين الماضي والحاضر ، ترجمة اسطنبولي رابح ومنصور عاشور ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1984 م .

- باغي ، عبد الرحمان ، حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، المكتبة المغربية 1961 م .

- جوليان شارل أندري ، تاريخ إفريقيا الشمالية ، ج1 ، تحقيق ، محمد مزالي والبشير ابن سلامة الدار التونسية للنشر تونس 1938 م .

- جودت، عبد الكريم يوسف ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرن الثالث والرابع هجري من 9-10 م ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1992 م .

- جرجي ، زيدان تاريخ التمدن الإسلامي (جزءان) منشورات دار مكتبة الحياة بيروت 1967 م .

- حسن إبراهيم حسن :

* تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964 م .

* تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964 م .

- حسن إبراهيم حسن ومحمد شرف، المعز لدين الله، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1980 م.

- حسن حسني ، عبد الوهاب ، ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية (جزءان) ، مكتبة المنار ، تونس ، 1965 م.

- زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، 1951 م.

- غالب مصطفي ، إعلام الإسماعيلية ، دار اليقضة العربية للتأليف و الترجمة والنشر ، دار الثقافة ، بيروت ، 1984 م .

- لقبال موسى :

* دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1979 م.

* الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي، نشأ ا وتطورها، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971 م.

- لو مبار ، موريس ، الإسلام في مجده الأول ، ترجمة وتعليق ، إسماعيل العربي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1979 م .

- مجاني ، بوبة ، دراسات إسماعيلية ، مطبوعات جامعة منتوري ، قسنطينة ، الجزائر ، 2003 م .

- محمد محمد ، مرعي ، النظم المالية في الدولة الإسلامية على ضوء كتاب الخراج لأبي يوسف ، دار الثقافة ، قطر ، 1987 م .

- محمد، شعبان، محمد عبد الحي، الفاطميون، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1981 م.

- مخلوف ، محمد بن محمد ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، المطبعة السلفية ومكتبها ، القاهرة ، 1930 م .

- مرمول ، محمد الصالح ، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983 م

- Bel (j) ، "la religion musulmane en berbérie " ،T1, paris ,1983.

- Charles (A,J) , " histoire de l'Afrique du nord " , Payot, paris ,1952.

- Marçais (G), "la berbérie musulmane et l'orient ou moyen âge ", édition montage, paris, 1946.

- Megherbi (A), "la pensée sociologique d'ibn khaldoun", entreprise national du livre, Alger 1983.

- Le tourneau (R), "les villes musulmanes de l'Afrique du nord", la maison des livres, Alger, 1957.

3/ الموسوعات والمعاجم:

- البستاني، بطرس، دائرة، المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1998 م.
- ال ياسين ، محمد حسن ، معجم النبات والزراعة ، ج1 ، مطبقة ا مع العلمي العراقي ، 1986 م .
- الشذر طيبة ، صالح ، ألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ ، القاهرة 1994 م .
- الشيخ رضا احمد، قاموس رد العامي إلى الفصيح، دار الرائد العربي، بيروت، 1981 م.
- دغيم ، سميح ، موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي ، ج1 ، مكتبة لبنان ، 1998 م .

4/ الرسائل الجامعية :

- بلهواري فاطمة ، الفاطميون وحركات المعارضة في المغرب الإسلامي ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجيستر في التاريخ الإسلامي ، اشراف الأستاذ ، احمد رمضان احمد ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، جامعة عين شمس ، مصر ، 1991 م .
- مجاني بوبة النظم الإدارية بلاد المغرب خلال العصر الفاطمي رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الإسلامي ، إشراف الأستاذ ، محمود إسماعيل عبد الرزاق ‘ قسم التاريخ جامعة قسنطينة الجزائر 1995 م .

5/ الدوريات :

-الجنحاني الحبيب (السياسة المالية للدولة الفاطمية) مجلة الأصالة العدد : 49-50 ، السنة الدراسية ، رمضان ، شوال 1397 ه / سبتمبر – أكتوبر، 1977 م .

- لقبال موسى (طبنة مدينة الزاب و الأوراس في العصور الوسطى) ، مجلة الأصالة ، العدد : 60 – 61 ، تصدرها وزارة التعليم الأصلي الشؤون الدينية ، الجزائر، 1978 م .

- ميتز، ادم ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج 2 ، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ، 1940 م .

الفهـارس

أولا: فهرس آيات الذكر الحكيم.

ثانيا: فهرس الأعلام.

حرف الألف

الآباء

الأبناء

سائر حرف الألف

حرف الباء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الصاد

حرف العين

حرف الغين

حرف القاف

حرف الميم

حرف الراء

حرف النون

ثالثا: فهرس البلدان والأماكن.

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الميم

حرف النون

حرف الواو

رابعا: فهرس الدول والأمم والقبائل والطوائف.

حرف الألف

حرف الباء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف العين

حرف الياء

★ ★ ★

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

المحتوى **الصفحة**